قصص
AHWAR
محمد حسين النجفي
شموع لا تطفئها الرياح
قصص قصيرة
من تلك الأيام
أهوار

عنوان الكتاب: شموع لا تُطفئها الرياح
قصصٌ قصيرةٌ من تلك الأيَّام
المؤلف: محمد حسين النجفي
التخصص: قصص
القياس: 14 x 21سم
الطبعة الاولى: 500 نسخة / 176 صفحة / 2023
ISBN: 978-9922-9857-5-6
جميع الحقوق محفوظة لدار ومكتبة أهوار للنشر والتوزيع Dar ahwar ©

العراق- بغداد- شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
07712482615
face: أهوار للنشر والتوزيع
page: دار ومكتبة أهوار
Instagram: darahwar
E-mail : ahwar.publisher@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله بأي شكل من الاشكال من دون إذن خطي من الناشر.

شموع لا تُطفئها الرياح

قصصٌ قصيرةٌ من تلك الأيَّام

محمد حسين النجفي

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى حبيبة القلب

وتوءم الروح

ورفيقة الدرب

"هاسميك"

قنديلي

الذي لا ينطفئُ نورُهُ

في هذه الحياة

تقديم

يُعَدّ كتاب (شموع لا تطفئها الرياح) للكاتب محمد حسين النجفي نصّاً استعادياً كُتب في فصول متعددة، ينتظمها سياق الحكي الذي يتمحور حول شخصيّة الكاتب ذاته، وعلاقاته بالزمان والمكان اللذين تجري فيهما الأحداث، حيث يتفاعل الكاتب ومحيطه الخارجي مع الشخصيات التي شيّدت تاريخه الشخصي وفق جدلية التفاعل بين الذات والآخر، تفاعل ليس بالضرورة أن يكون إيجابياً.

لقد اعتمد الكاتب اللغة النثرية، مخلصاً في إيصال رسالته للقارئ المفترض، والذي أتصوّره يحكي له بأسلوب مشوّق، ويصمت عندما يجد قارئه المفترض شارد الذهن، أو متأمّلاً ناظراً في الأثر الذي تتركه الأحداث فيه، الكتاب سيرة ذاتية روائية كُتبت تفاصيلها بوعي عالٍ، والكاتب يحفر عميقاً في جدران زمن الحاكم الذي لم يتصالح معه في عهوده الملكية والجمهورية، وهو يقود العراق تاريخاً وشعباً، جغرافيّاً واقتصاديّاً من خندق إلى خندق، والشعب يدفع ثمن ولائه المطلق للوطن حياةً وحلماً.

ما استوقفني متبسّماً كيف أن الكاتب يقدّم، بشكل ساخر على امتداد صفحات الكتاب، مقولة (الزمن الجميل)، التي باتت لازمة تردّدها الأجيال ناقمةً من السلطات الزمنية المتعاقبة، وهي لم تعثُر على حلمها المهدور على يد الحاكم الجائر، فكلّما جاء ضوء فجر ظنّه الناس ضوءاً صادقاً، وإذا هو بداية ظلام ليل طويل، لقد تلمّس الكاتب محمد حسين النجفي مظان الخلل في الفهم الجمعي لموضوع (الزمن الجميل) قرأه وهو ينصت لجرحه الوجودي الأول، جرح ذاك الفتى الحالم حيث قيّدت يد السجّان الآثمة

أفكاره المتطلّعة إلى وطن يشيّده فكر حر، وشعب يبني أحلامه برؤى تعانق آفاق الكلام.

أنجز الكاتب سرديّته بأسلوب السرد المباشر، فقلّما يوظّف تقنيات الاستباق والاسترجاع، بيد أن نصّه ظلّ معبّأ بالدهشة والانفعال، إذ أرى أن القارئ الذي عاش مثل هذه الوقائع المسرودة لا يملّ من متابعتها بعين ملؤها التفاعل والرغبة في الوصول إلى آخر الطريق، فهناك نقرأ ما هو سوسيولوجي مفرح ومؤلم في آن، وهناك ما هو أنثروبولوجي يفقس قشرة المحتجب والمحجوب وراء العادات والمعتقدات التي لم تفرضها الشرائع السماوية، ولا الأعراف الاجتماعية المعقلَنة، فالكاتب لا يقف موقفاً سلبياً من الدين أو المجتمع، بِقدْر ما يفضح عورات الاعتقادات البالية، والتصوّرات الخاطئة، التي برهنت الأيام على بطلانها.

أرى أن الكتاب يعرّفنا على عادات وتقاليد وألفاظ في بيئات عراقية لم نكن عرفناها أو سمعنا بها من قبل، فالكتاب تجسّدات ثقافية فكرية سياسية اجتماعية تاريخية، اجتهد الكاتب في تقديمها بالشكل الذي يدعو القارئ لمصاحبته بحميمية، حيث الأسواق والمقاهي والمكتبات والأزقّة والأعراس والسجون والمستشفيات والمدارس والمسابقات وقاعات الدرس وأروقة الجامعة ومدرّجاتها، والعلاقات العلمية البانية بين الأساتذة والطلبة، ووجود الدخيل في هذا الفضاء، شبكة من الأحداث الدرامية التي تشدّ القارئ إليها، وتأخذه إلى طرح الأسئلة على الذات والآخر، على الزمن المعيش والزمن الماضي، على استشراف المستقبل بروح يؤثّثها القلق والمشي خلف الهديل.

يجد القارئ أن الكاتب هو الراوي، وهو الشخصية الرئيسة في كلّ الأحداث، وهو البطل في هذه السردية، لكنه ليس البطل المطلق،

وإن لم يتنازل أمام عصرة القلب، وإن انتصر في نهايتها، لأنه قدّم ذاته ملبّدة بظلام الخوف من السلطان وأدواته، ينام مرتجفاً ويصحو مرتعباً، وهذا خوف إنساني، من هنا أراه قد اقترح ترجمة بديلة لكتاب سيمون دي بوفوار (قوة الأحداث) أو (تحكّم الأحداث) بدلاً من (قوة الأشياء)، وفي هذا اعتبار لصرامة الواقع وشراسته الذي عاشه الكاتب، وعاشه شعبه ويعيشه الآن، هذا ما نقرؤه في معظم فصول الكتاب، وهو يقارن بين الماضي والحاضر حين يتساءل كيف هي الحال الآن؟

إذا كان هذا الكتاب شهادة على عصر عاشه العراقيون بأفراحه وأحزانه، لا أغالي إذا قلت إنه رواية، على اعتبار أن كلّ رواية سيرة، هذا الكتاب، إذن، هو سيرة ذاتية روائية، هو خطاب أوتوبيوغرافي، أنجزته ذاتٌ متفاعلةٌ والشخصيات التي حضرت بأسمائها الصريحة موثّقةً بالصور، أو بالإشارة إليها خوفاً من أن يمسّها الأذى، سواء أكانت على قيد الحياة أم انتقلت إلى حياتها السرمدية، إذ نكش الكاتب ذاكرته النابضة بالوعي وبالحياة، وبالشواهد التي تبرهن على أن الأحداث واقع معيش، وأن بُناتها موجودون مثل جرح يحمله جسد الزمن القاسي، لكن هذه الواقعية ليست سكونية، وإن وظّف كاتبها الزمن الخطي، فهي واقعية حركية تفعّلها أصوات الحضور والغياب مثل صوت قطار يمزّق سكون الليل ودجاه.

الأستاذ الدكتور محمد عبدالرضا شياع

الولايات المتحدة الأمريكية

شكرٌ وامتنانٌ

أشكرُ وطني الغالي العراق الذي وُلِدْتُ وتَرعْرَعْتُ فيه، والذي أكنُّ له خالصَ ودِّي ومحبَّتي التي لم تتزعزع، رغم قساوة الظروف التي مررتُ بها شخصيًّا أنا وعائلتي وجيلي التموزيّ الخالد. أشكرُ أمِّي وأبي على تربيتنا لمحبَّة الوطن والتصرُّف بمسؤوليَّة، وأعتذرُ منهما وإنْ كان بعد فوات الأوان على ما سبّبته لهما من قلقٍ وخوفٍ ورعبٍ وأذى، نتيجة انخراطي ومساهمتي بحماس في نشاط سياسي في عمر مبكر، وفي ظروف قاسية جدًّا. ظروف وأحداث، لم أدفع ثمنها منفرداً، وإنّما شاركتني في ذلك عائلتي وبالأخصّ أمِّي وأبي .

أشكرُ إخواني وأخواتي وأصدقائي على تشجيعهم ومحبّتهم وإسنادهم. والشكرُ الكبير لزوجتي ورفيقة عمري هاسميك درتافيتيان، وابنتي الغالية ندى وابني العزيز عامر، على محبّتهم وتشجيعهم والسماح لي بتركيز جزءٍ من الوقت العائلي، كي أضعَ هذه الكتابات بين يدي القرّاء الكرام، لتكون جزءاً من كتابة التاريخ الذي عادةً ما تكتبه السلطات الحاكمة بحقائق ومعلومات ملفَّقة.

ولابد لي من تقديم الشكر والأمتنان للأصدقاء الذين طرحوا عليّ فكرة تجميع آرائي وأفكاري والحوادث التي ساقني الزمن للأنخراط بها، واخص منهم الأخوة الأعزاء حُسام عناني وحيدر عودة كريم وعقيل عبود وعامر حسن. والشكر والأمتنان للأخ أمجد ياسين النصير ودار أهوار للنشر والتوزيع للمهنة العالية. وشكر وإمتنان خاص جداً للدكتور الأستاذ محمد عبد الرضا شياع وعائلته الجميلة، لأسنادهم المعنوي والأدبي وارشادهم لي في كل خطوة في كتابة ونشر كتاب "المناضل الصغير" وهذا الكتاب، وإن شاء الله في الكتب المستقبلية.

مقدمة

لا بدَّ لي من الاعتراف للقارئ الكريم من أنَّني لستُ أديباً أو كاتباً، سواء بالمعنى الأكاديمي او المهني، ولستُ قائداً سياسيّاً او شخصيَّة مرموقة من الذوات في المجتمع البغدادي. إلّا أنَّني وجدتُ من الضروري أن أكتب عن شخصيات شامخة ومواقف راكزة وشموع لم تستطع الرياح العاتية أطفائها. اكتب عن مقتطفات مهمّة من حياتي وحياة عائلتي وما مرَّ به مجتمعنا في القرن العشرين. أكتبها كي يتعرَّفَ عليها هذا الجيل والأجيال المقبلة، لما تشكّله من حقبة تاريخيَّة زاخرة بالأحداث المهمّة والقاسية. ذكريات ومشاعر وتفاعلات ما زالتْ عالقةً في الأذهان.. إنَّها تجارب من الحياة مررنا بها وعشناها سواء تقبّلناها أم تمرّدنا عليها. وعند التقبّل أو الرفض هنالك تبعات، معظمها تبعات سلبيَّة تُعرقل مسيرة الحياة. ولكن على الإنسان أن يتعلّم كي يتخطاها ويبقى أميناً على قيمه ومبادئه وبأساليب مختلفة حسب الظرف والزمان والمكان.

يتحدّث الجميع عن الزمن الجميل الذي هو زمن غير مُحدّد، زمن الصبا والشباب وكلّ ما يرتبط بهما في تلك المرحلة من أحداث، وما نستمع له من موسيقى وأغانٍ، ومن أبطال كرة القدم الذين كُنَّا نحبّهم ونشجّعهم، من زملاء الدراسة وأصدقاء الحارة التي نعيش بها. الزمن الجميل يرتبط بأوليات نمو المشاعر العاطفيَّة، وبدايات متابعة بنات الجيران، وتوزيع الابتسامات المجانيَّة عليهن. الزمن الجميل يرتبط بالتعاضد والتكافل مع مجموعة من الأصدقاء ننتمي إليهم ولا نستطيع أن نفترق عنهم. مجموعة كرة القدم ومجموعة الدراسة البيتيَّة المشتركة، والمجموعة التي تخرجك عن الطريق السوي. ذكريات السيجارة الأولى التي دخناها وطعم أول كأس شربناه، وارتباكنا ونحن نتحرُّش بأول فتاة ولا ندري ردود افعالها!

ولكن أهمّ الذكريات هي ذكريات النمو الفكري والانتماء السياسي، والتعلّق بمبادئ وأفكار تصبح هي شغلنا الشاغل، ومشعلنا الذي نستنير به، وهدفنا في الحياة. وهذا الانتماء الذي لا يقبل المساومة والمقايضة يبدأ بتجريح زمننا الجميل، كي ننزف الابتسامة من حياتنا، ونتحوّل تدريجيّاً الى حمّالي همومٍ ومآسٍ أكبر من طاقتنا، تجعلنا نعيش قصصاً مليئة بالحزن والألم، تحفر تفاصيل أحداثها في أعماق الذاكرة. ذكريات أول منشور سرّيٍّ قرأناه، وأول مظاهرة شاركنا فيها، وأول ركضة هروبٍ من رجال الأمن قبل أن يعتقلونا.

وفي هذه المجموعة القصصيّة التي هي قصصٌ واقعيّة، أحكيها لكم بتصرُّف، والتي تعبّر عمّا مررتُ به وعاشه جيلي، جيل تموز 1958 في خمسينيات وستينات وسبعينات القرن الماضي. أتمنى أن أستطيع رَسْمَ صورة للقارئ الشاب في القرن الواحد والعشرين عن ظروف وطبيعة الفرح والمعاناة في ذلك الزمان كي يقارن مع ما آلتْ إليه الأمور بعد خمسين وستين وسبعين عاماً.

استخدمت الأسماء الحقيقيّة في الأحداث العامة، حين لا يصيب صاحبها ضررٌ، وأحياناً فضّلتُ الأسماء الأصليّة لأنَّ ما قام به هؤلاء الأشخاص ألحق أضراراً بشخوص الحدث أو بالصالح العام. وآثرتُ أن أستخدم أسماء رمزيّة كي لا تُفسَّر بأنّها نكاية شخصيّة. ومعذرةً إنْ سهوتُ في تفاصيل بعض الأحداث والوقائع غير المقصودة، آملاً من لديه معلومات إرسالها لي شخصيّاً كي نصحّحها في الطبعات المقبلة.

محمد حسين النجفي

malnajafi@aol.com

طفولتنا السعيدة

سستر ميري

انتقلنا عام 1949 من مدينة النجف الأشرف الى بغداد لنسكنَ في بيتٍ صغيرٍ مجاوراً لبيت الحاج حسن الدقاق، ومقابلاً لجامع المصلوب في منطقة الدهانة. ولما قرَّرَ أبي أن يستقدم بيت جدِّي والد أمي وخوالي من مدينة الكوفة الى بغداد عام 1951، أستأجر بيت صديقه عبد الباقي الطحَّان في الكرادة الشرقيَّة. كان هذا البيت كبيرا جدّاً وفي منطقة البوليس خانة في شارع اسمه شارع الكنيسة. وسُمِّيَ هذا الشارع بهذا الاسم لوجود كنيسة فيه قرب نهاية الشارع جهة نهر دجلة. ولم تكن هذه الكنيسة داراً للعبادة والقدّاس فقط، وإنّما تضمُّ أيضا داراً للأيتام وحضانة وروضة ومدرسة ابتدائيَّة، ولذلك كانوا يسمّونها أيضاً دير الراهبات.

توقفتْ في أحد الأيام، امرأة ذات ملامح ملائكيَّة جميلة وهادئة وبملابس الراهبات الوقورات بالرداء الأبيض المغطّى بخمارٍ أسود على الأكتاف. توقفتْ سستر ميري أمام دارنا وكنتُ ألعب في التراب بعتبة الباب. قرعت الراهبة باب الدار لتخرج أمي وتتحدث معها. سألتَها عن اسمي وقالتْ لأمي "لماذا يلعب محمد في الشارع ويوسّخ نفسه في التراب؟، إجلبيه الى الكنيسة صباح كل يوم كي يتعلّم ويلعب مع بقية الأطفال". كانت أمي امرأة بسيطة غير متعلّمة وملتزمة دينيَّاً في الصلاة والصوم، ولم يمضِ على قدومها من النجف الأشرف أكثر من عامين، ومع ذلك وافقت ووافق أبي. وكانت كلّ يوم تحضرني وتلبسني الشورت ذا الشيَّال مع القميص، وترسلني الى الكنيسة. وكان في داخل الكنيسة ساحة كبيرة

(حوش) نلعب بها طول الوقت. وبعد ذلك أدخلوني مدرسة راهبات الكلدان في حي كمب الأرمن قرب ساحة الطيران وبعدها مدرسة الحكمة الابتدائيَّة في الكرادة الشرقيَّة وكلها مدارس أهليَّة بإدارة مسيحيَّة.

أنا في الملابس التي كنتُ أذهب بها الى الكنيسة مع خالي مهدي وخالي كريم في سطح بيت الطحّان في شارع الكنيسة بوليسخانة/ الكرّادة الشرقيَّة عام 1952

وحينما أفكّر في الموضوع حاليَّاً أجده غريباً بعض الشيء. لماذا؟ لأنَّ أمي لم تكن تعمل ومن ثمَّ لا تحتاج الى مُربيَّة (بيبي ستر) كي تساعدها في تربيتي. وإذا احتاجت لمن يهتمّ بي، فإنَّ هناك خالتي وعمتين وجدّتي. كذلك الأمر فيما يخص الكنيسة وسستر ميري، فإنّهم لم يكونوا بحاجة لإضافة أطفال آخرين، فلديهم من مِلَّتهم ما يكفي من الأيتام والأطفال. فلماذا اذاً توقفت الراهبة بباب

دارنا؟، ولماذا وافق الجميع أمي وأبي وجدّتي وجدّي وخوالي من دون أي احتجاج؟

الجواب ببساطة قبل سبعين عاماً كان أهلُنا أكثر تحضّراً من الذين يدّعون الثقافة والدين هذه الأيّام. كان الدين حضـــارة وثقافة تُهذّب الســـلوك وتُهدي القلوب الى احترام ومحبَّة الغير. لا أدري إن كان هناك مثيل لسستر ميري؟ ومثيل لأمي وأبي في هذه الأيّام؟، ولكنّي أعلمُ علم اليقين أن ثقافة ذلك الزمان كان لها الأثر الإيجابي على ما نشـــأنا عليه أنا وأبناء جيلي الذين نحن آخر بقاياه. وهذه الصـورة التذكاريَّة في ســطح بيتنا مع خالي مهدي وخالي كريم وأنا بملابسي المدرسـيَّة التي أذهب بها الى الكنيسـة. وللصـورة معنى آخر إذ إنَّ علاقتي مع خوالي مهدي وكريم ظلّت خاصـــة ومتميّزة ومستمرة طيلة حياتنا.

أنا وجدِّي في سينما النجوم

كان جدِّي أبو والدي من الطبَّاخين الماهرين المعروفين في مدينة النجف الأشرف في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسـينيات من القرن الماضي. وكان طبَّاخاً لموكب عزاء الترك في النجف، لأنَّ جذوره ترجع الى منطقة قزوين شمال شرق إيران؛ لذا كان يتحدث اللغة التركيَّة والأذريَّة بطلاقة فضلا عن اللغة الفارسيَّة والعربيَّة. وكان أيضاً يملك مطعماً للكباب في أحد الأزقة المتفرِّعة من السوق الكبير وهو السوق المسقف الذي يصل ما بين ميدان المدينة الرئيس والعتبة العلويَّة لأمير المؤمنين (ع). ولذلك لُقِّبَ جدِّي في النجف بلقب (حجي علي أصغر كبابي). كان جدِّي طبَّاخ حملات الحج التي كانت تبدأ رحلتها من النجف الأشرف الى مكّة المكرّمة عبر طريق عرعر البري الصحراوي. وكان عمّي الحاج جعفر من السواق الماهرين الذين يعرفون الطريق الصحراوي لمكّة المكرّمة الذي معظمه غير مُعَلَّم وغير مُبَلَّط آنذاك. وعليه كان عمّي مالك سيارة باص النيرن التي تتمُّ صناعتها بأكملها فيما عدا مقصورة السائق والمكينة والشاصي في ورشات النجف. أما مقصورة الرّكاب والكراسي والإنارة وكل المرافق الأخرى فكانت تُصنع في النجف من قبل عمال ماهرين بضمنهم أبناء عمّي جعفر ومنهم جبوري ومكّي الذين عَمِلَا في مصنع عبودي الشمَّاع (المعروف بصناعة بوديات دك النجف).

كانَ جدِّي يأتي الى بغداد لزيارتنا بين الحين والآخر. وكان يقضي معظم وقته معنا نحن أبناء ابنه علي. كان قصير القامة، بشوشاً في

معظم الأحيان يرتدي الملابس التقليديَّة، الصـــاية والكشـــيدة (غطاء الرأس الأسطواني الأحمر الذي يُلَفُّ حوله قماشٌ أخضر. إذا كان الشـخص سـيداً، أو قماشٌ أبيض ذو نقش أصـفر عليه إذا كان من العامة، وهو اللون الذي كان يلبسـه جدِّي). وهذه الملابس لا تدلُّ على أنَّ الشـــخص من رجال الدين، إذ إنَّ رجل الدين يلبس عِمامة لونها أســود إنْ كان ســيداً، ولونها أبيض إنْ كان من العامة ويُسمَّى شيخ.

وحينما كان يزورنا جدِّي في الصـيف كان يَصـحبني معه الى سـوق الشـــورجة وهي مركز تجارة والدي وخوالي. وعند العودة نأخذ باص الأمانة الى الباب الشرـــقي ومنه إلى الكرّادة داخل باص رقم (12) الى شـــارع الهندي حيث كان مســـكننا آنذاك. وأحياناً كان يأخذني لنطلَّ على شـــارع أبي نوأس وبعض الأحيان نتمشّىـ في شـارع السـعدون الذي كان مزدهراً بمحلاته ومطاعمه ذات الإنارة الباهرة. وأحياناً كُنَّا نذهب الى الكرّادة خارج كي نتمتع بمنظر مزارع الخس قبل أن تتحوّل الى مســاكن سُـمِّيتْ لاحقاً بـــ (عرصـات الهنديَّة).

ولكن في أحد الأيام قال لي: جدّو، اليوم آخذك للسـينما. طبعاً كان عمري في حدود الخمس او ست سنوات ولم أشاهد السينما بعد. فرحتُ كثيراً، ومشـــينا من ســـاحة الملكة عالية (التحرير حاليَّاً) باتجاه حديقة غازي (حديقة الأمة حاليَّاً) الى ســـينما النجوم الشـتوي. وعادةً هناك أربع إعلانات تعرض صـوراً متنوعة ومثيرة للأفلام. الإعلان الأول يُســمّى (يعرض حاليَّاً) والثاني (الأســبوع

القادم) والثالث (قريباً جدّاً) والرابع (قريباً). وقفنا أنا وجدِّي أمام اللوحة الأولى وبها العديد من الصـور وبدأ جدِّي يحكي لي القصـة او الفيلم من خلال الصور.

يحكي القصة بتفاصيل مثيرة يستلهمها من الصور. ومعظم الأفلام آنذاك كانت أفلام الكاوبوي (رعاة البقر) او أفلاماً مصريَّة، ومن ثمَّ فإنَّ هناك البطل والشريـر والمرأة التي يتصـارعون من أجلها. كان جدِّي يتكلّم بحماسٍ ويشرــح الأحداث بعربيته المطعّمة باللكنة التركيَّة واللهجة النجفيَّة ذات الطعم الجميل الخاص بها. وبين الآونة والأخرى يســألني: هل فهمت الفيلم جدو؟، أقول: نعم جدو. وبعد أن أنهى الفيلم الأول (يعرض حاليَّاً) ســألني ما إذا كان قد أعجبني الفيلم؟ قلت نعم جدو. ثم سألني هل تريد أن تشاهد فيلماً آخر؟ قلتُ نعم جدو. ثم بدأ يحكي لي القصة من وحي صور (الأســبوع القادم). ثم حكى لي الفيلم الثالث والرابع من دون أن نشــتري بطاقة الدخول او ندخل صــالة العرض. كان يوماً جميلاً

شاهدتُ فيه أربعة أفلام سينمائيَّة مع جدِّي ما زالت ذكراها أمام عيني.

طبعاً بعد ذلك علمتُ أن جدِّي أخذني الى السينما على طريقته الخاصة، ربما بسبب التديُّن أو كلفة الدخول او أي سبب آخر. بالنسبة لي كانت تجربة متميزة وجميلة ما زلتُ استمتع بتذكرها حتى الآن. تمرض جدِّي في عام 1961، إذ استقدمه أبي من النجف للعلاج في بيتنا في شارع الهندي، في الكرّادة الشرقيَّة. كان الدكتور وهو من الطائفة اليهوديَّة يُعالجه في بيتنا وتعتني به أمي وعمّتي مريم التي كانت تعيش وابنها صالح في وقتها معنا أيضاً. وُلِدَ جدِّي في بداية القرن العشرين وتوفي في شهر رمضان من عام 1961، وللأسف لا توجد لدينا أية صورة شخصيَّة له.

اللاعب الصغير

كـان هنـاك اعتقـادٌ موهومٌ لـدى بعض رجـال الـدين (وليس المرجعيَّة) وخاصـــة عند الشـــيعة، من أنَّ المدارس الحكوميَّة والأهليَّة غير الدينيَّة تُدرِّس مواد علميَّة وأدبيَّة تتنافى مع التعاليم الســـماويَّة؛ لذا كان بعض رجال الدين ينصـــحون اتباعهم بأن لا يبعثوا أبناءهم الى تلك المدارس. وهذا ما حدث بالضـبط لوالدي حينما كان في الصـف الثاني او الثالث الابتدائي. فبينما كان يسـير في السـوق الكبير في النجف الأشرف مع والده، صـادفهم رجل مُعمَّم (وليس عـالم دين) الذي عـاتب جدِّي لأنّه أدخـل ابنه "علي" في مدرسـة حكوميَّة، ونصـح هذا المعمَّم جدِّي بأن يُخرج والدي من المدرســة لأنَّها حرام. تدخل والدي (وهو في العشرـ سـنوات من عمره) في الحـديث من دون ترخيص من جـدِّي، وقـال لـه: لكن ابنك معي في المدرســـة، لماذا لا تخرجه؟ اعتبر جدِّي كلام والدي تحدياً وقلة أدب من ابنه، فكفخه على رأســـه (ضربه بيده على خلفية رأسه)، وزجره وفعلاً أخرجه من المدرسة.

كان ذلك في حدود عام 1930 في مدينة النجف الأشرف. لقد أدى هذا النهج الى ضعف انتشار الثقافة التعليميَّة في مناطق الجنوب والفرات الأوســط، لذلك انحسرـ دورهم في الوظائف الحكوميَّة، بينما اتســـع في مجالات التجارة والأعمال الحرَّة. وبموجب ذلك تغيَّر مسار والدي من التعليم الى المباشرة بالعمل في السوق الكبير في بيع وشراء أي شيء وكل شيء حسب الموسم، وما كان له حاجة في الســـوق الى أن اســـتقرَّ على التركيز على الســـلع المنزليَّـة

والمطبخيَّة. كان لوالدي صـــديق من عمره يقوم بذات الشيــء وكانوا يأتون الى بغداد لغرض التســوّق ويعودون الى النجف معاً. كان هذا الشـخص هو الحاج علي مرزة الذي دامت صـداقته لأبي ولي شخصيَّاً من بعد ذلك لحين الفراق الأبدي.

تطور والدي في التجارة ليصـبح من التجار المعروفين في الســوق الكبير في النجف في أربعينيات القرن الماضي. ثم لينتقل بعد ذلك الى بغداد للعمل في ســوق الشــورجة، المركز التجاري الرئيس لبغداد وعموم العراق وليكون عضــواً في غرفة تجارة بغداد وأحد كبار المستوردين للكريستال والبورسلين والسلع المنزليَّة.

ونتيجةً لما حصـــل لوالدي في صـــغره وما رآه من حاجة للثقافة والتعليم عموماً ولأهمية تعلّم اللغة الإنكليزيَّة خصـوصـاً للأغراض التجاريَّة، كان يسـعى ليحصـل أبناؤه على أفضل تعليم ممكن. لهذا الســبب ولغيره انتقلنا الى بغداد حيث بدأ مشـــواري الدراسي بدخول الروضـــة والتمهيدي والأول ابتدائي في مدرســـة راهبات الكلدان، ثم في الصــف الثاني الابتدائي الى الســادس الابتدائي في مدرسة الحكمة الأهليَّة في الكرَّادة الشرقيَّة.

سفرة مدرسة الحكمة الى معمل الألبان في أبي غريب 1957

اعتادتْ مدرسة الحكمة الابتدائيَّة الأهليَّة في الكرَّادة الشرقيَّة إقامة مهرجان رياضي ضخم بين سنة وأخرى. كان العام الدراسي 1956/ 1957 هو العام الدراسي لهذا النشاط. وعلى الرغم من أن المدرسة لها مُعلّم رياضة وهو الأستاذ عبد القادر، إلّا أنّهم وظفوا مدرِّباً خاصاً متفرِّغاً للمهرجان وهو الأستاذ أنور الذي كان نشطاً ومتحكّماً وبشوشاً في آنٍ واحد، لذلك كُنَّا نخافه ونحترمه ونحبّه في الوقت نفسه. طبعاً كلّ الطلاب يُعتبرون من المشاركين في فعاليات المهرجان وخاصة طلبة الصف الرابع والخامس والسادس. ومن بين الألعاب المهمّة هي المسيرة العسكريَّة (يس يم) (Marshall Band). كذلك ركض الـ 100 متر والبريد والقفز

والحصان الخشبي (الجمنا ستك) وغيرها من الألعاب. لقد لاحظ أســتاذ أنور التزامي ومهارتي أثناء التدريب فاختارني للمشــاركة في نشاط المسيرة العسكريَّة وركض الـــ 100 متر والحصان الخشبي (الجمنا ســتك) وشــجّعني على التركيز عليها. دعوتُ أمي وأبي لحضـور المهرجان إلّا أنّهما ليسـا من النوع الذي يُحبّذ الاشـتراك بهذا النوع من النشاطات العامة، لكن أبي قال لي شيئاً غير مُشجع، وهو أنَّ حظي بالفوز بالركض ضــعيفٌ؛ وذلك لقصرـ أرجلي. لم أفكّر بالموضـوع كثيراً في حينها، ولكنّي حينما اسـتذكره الآن أعتقد أنّه أراد حمايتي من ردود الفعل النفسيَّة في حالة عدم الفوز.

ومدرســـة الحكمة من المدارس الأهليَّة المختلطة التي يمتاز تدريســـها بتعليم اللغة الإنكليزيَّة من الصـــف الأول الابتدائي. مؤسســها ومديرها كان الأســتاذ شــوكت زوما الذي اســتطاع أن يقدم أنموذجاً جيداً لما يســتطيع أن يقوم به القطاع الخاص في التربية والتعليم، إذ إن المدرســة كانت من حيث البناء والتعليم والنظافة جيدة جداً. كانت لدينا قاعة خاصــة لتناول الغذاء، وســاحة كبيرة للألعاب، وصــفوف فرهة وحمامات نظيفة. كان الأســتاذ شــوكت يحافظ على النظام الصــفّي بطريقةٍ ربما تعد قاسية من المنظور الحديث. إذ كان يُعاقب المشاكسين بالضرب بمسـطرة خشـبيَّة غليظة، يضربـها على كفِّ اليد وأحيانا يضرـب بالجانب الحاد وليس العريض. أتذكّر أنَّه في إحدى المرَّات كَسَرَــ المســطرة على يديّ من شــدّة عنف الضرـبة. وربما كانت هي الطريقة الوحيدة التي يعرفونها أو المناسـبة في ذلك الوقت. كانت ست فكتوريا أخت أستاذ شوكت تساعده في إدارة المدرسة، وهي ســيدة من الـدرجـة الأولى بكل معـاني الكلمـة. ومن المعلمين

والمعلمات الذين أتذكرهم وأقدرهم ست "مقبولة" التي درّستنا اللغة العربيَّة وست "ثانية" التي علَّمتنا اللغة الإنكليزيَّة.

كان من زملائي في تلك الفترة مؤيد كاظم الروَّاف، شكيب عزت السنجقلي، فائز مزهر شنين، صباح نايف جودي، صباح رضا، رعد رزوق اسطيفان، شفيق محمد حسن شاه، محمد رضا قاسم عباس النجفي، خديجة محمود الصرَّاف، سعاد وأمل باقر الحريري، أحلام عبد الرزاق الحسني، رعد نعيم نعمو، وائل عبد الأمير، أسعد عباس السعدي، إياد علي عيسى، مصطفى أمين آل عيسى، أيسر زوما، باسم محمد رزوقي، فاروق البعلي، نبيل حسن زلزلة، تغريد ناظم حميد والأخوة موفق وكاظم البياع، صادق حمرة، عدنان عبود عطرچي، ممتازة رديف العبيدي، عماد عبد الجبار الجدوع، حميد مجيد، منى الحريري، وسُميَّة، و خالد و...

وجاء يوم المهرجان، وهو يوم مهم لمدرسة الحكمة وللكرَّادة الشرقيَّة وللأسف لم يحضر أيٌّ من عائلتي سوى الصديق حكمت الدقّاق. ابتدأ المهرجان الذي كان في باحة المدرسة وكان أهل التلاميذ في ملابسهم الاحتفاليَّة الزاهية يجلسون في موقع عالٍ (الطارمة) مشرف على باحة النشاط. ابتدأ المهرجان بالسلام الملكي والمسيرة العسكريَّة، وكان هناك مُعلّق وميكرفون ومصورون. وفعلاً كان احتفالاً ابتهاجيَّاً تفتخر به مدرسة الحكمة وأستاذ أنور وأستاذ شوكت. كان الجمهور متحمِّساً ومشاركاً بالهتاف والتصفيق، خاصة المذيع الذي منحني من دون الآخرين لقب "اللاعب الصغير" بعد أن فزتُ الأول في المارشال باند.

أعقبها وهذه كانت مفاجأةً للجميع فوزي بالمرتبة الأولى في ركض الـــ 100 متر. استمرت السباقات وكان آخرها وأهمها وهو سباق ألعاب (الجمنا ستك) الذي كنت مشاركاً فيه. كانت ألعاب الجمنا ستك تتم على الحصان الخشبي الذي يتضمن قفزات وألعاباً عليه لتنتهي في النهاية بقفزة من حافة الحصـــان لنصـــل الى الأرض واقفين بثبات من دون التأرجّح او السقوط. كان المذيع متحمّساً للجميع إلا أنّه منحازٌ بشكل واضح لـــ "اللاعب الصغير" الذي كانت خطواته وقفزاته وثباته على الأرض متميزاً بدقته وأناقته.

حصدتُ في نهاية المهرجان ثلاث كؤوس الأول في المارشال باند والأول في ركض الــــ 100 متر والأول في الجمنا ســتك، وبذلك حصلتُ على حصة الأسد من الكؤوس. وكجزءٍ من مراسيم ختام المهرجان يتم اختيار أفضل رياضي أو لاعب للمهرجان. وهنا كانت المفاجأة العظمى وهي اختياري ومنحي لقب "بطل المهرجان" ومنحي كأساً كبير جداً أمام تصفيق حاد وصوت المذيع الذي لا أعرفه مغرّدا بصوتٍ جهوريٍّ وواضحٍ لـــ "بطل المهرجان اللاعب الصغير". يومٌ لا يمكن نسيانه وإنجاز لم أستطع تكراره إلّا بعد ثمانية عشر عاما حينما ناقشتُ رسالة الماجستير في إدارة الأعمال ودافعتُ عنها بحرارة ومُنحت رسالتي درجة "الامتياز".

وأنا خارج من باب المدرسة اســتوقفني أســتاذ شــوكت مدير المدرسة، ليقول لي "عافرم" مبروك الفوز. قلت له شكراً أستاذ. قال عليك أن تعطيني الكأس الكبيرة كي نحتفظ بها في المدرســة ويســجل تحتها اســمك. لم يكن في اليد حيلة أعطيته الكأس

الكبيرة وأحســـت بالإخفاق بعد ان كنت فرحاً به. كنت أودّ أن آخذ الكأس الكبيرة لأمي وأبي كي يفتخروا بابنهم صـــاحب الأرجل القصـــيرة الذي فاز بلقب بطل الاســـتعراض وسُـــمّي باللاعب الصـــغير. خرجتُ من المدرســـة مع الآخرين والكل كان يهنئني ويناديني باللاعب الصـغير. إنَّه لاعبٌ صـغيرٌ ذو إنجاز كبير، وهذا ما استمرّت عليه حياته.

حدثتْ ثورة الرابع عشرـ من تموز في العطلة الصـــيفيَّة من عام 1958، حينما كُنَّا ما بين الصف الخامس والسادس الابتدائي، التي هزّتْ مشـــاعر العراقيين جميعاً، رجـالهم ونســـاءهم، كبـارهم وصـــغـارهم، مثقفيهم وأمييهم، أغنيـاءهم وفقراءهم، عربهم وأكرادهم. كانـت غـالبيـة النـاس معهـا ومع زعيمهـا عبـد الكريم قاســـم، وكانت هناك أقلية تتعاطف مع العائلة المالكة. المهم أنَّ الثورة أجّجت المشاعر الوطنيَّة لدينا مصحوبة بعداء للاستعمار متمثلاً بـالولايـات المتحـدة وبريطـانيـا العظمى. ولـذلـك حينمـا تخرجت من السادس الابتدائي كان من المفروض أن أكمل دراستي الثانوية في "كلية بغداد" (وهي مدرســـة ثانويَّة أهليَّة معظم تدريسها باللغة الإنكليزية، بإدارة فاذرية (قسسة) من أميركا، وهذا ما أراده أبي بإصرار. إلّا أن "اللاعب الصــغير في عمر الثانية عشرــة تحول الى مناضـــل كبير!"، لذلك عارض ذلك بشـــدة باعتبارها مدرســـة تابعة للاســـتعمار، وعلينا أن نبتعد عنهم وعن مصـــادر ثقافتهم. وفضّـلتُ أن أكمل دراســتي في الثانويَّة الشرـقيَّة مخالفاً بذلك رغبة والدي في الحصول على أفضل تحصيل علمي. ربما لم يكن قراري صــائباً، لأنَّه من المفروض ان يكون التحصـيل العلمي مســعى منفصـلاً (اطلب العلم ولو كان في الصـين) عن المشـاعر

الســـياســـيَّة. ومع ذلك لا أعتقد أن قراري يخلو من الحدس الصـــحيح، إذ إنَّ بعض خريجي كلية بغداد تأثروا ببعض مظاهر ونمط الحياة الغربيَّة. ولا أعتقد أن في ذلك مشـــكلة، ســـوى أنّها ليستْ ما كنتُ أصبو اليه في حينها.

طبعاً كان ومازال يتفقه علينا أميّو الشـؤون الدينيَّة ويدرّسـونا هذا حلال وذاك حرام، وكرّروا ذلك حينما اخترع التلفاز، ثم حينما وصـل الإنسـان وهبط على سـطح القمر، وهم لم يتعلّموا المعنى الحقيقي للأديان السماويَّة ونسوا او تناسوا أن أول كلمة نزلت على النبي (ص) في غـار حراء هي: "إقرأ". شـــكرا لأبي الـذي تعلّم من تجربته السـلبيَّة، ومنحنا فرصـة لم تتسـنَ له، وشـكراً لأمّي ربّة البيت الأميَّة التي لا تعرف من القراءة ســـوى قراءة القرآن الكريم بطريقة الهجاء المُلائيَّة، والتي شـــجّعتنا على تحصـــيل العلم في مدارس الراهبات ولم تجد في ذلك ما يتنافى مع تعاليم الإسلام.

المنلوجست صادق القندرجي

دُعينا الى حفلة زواج في النجف الأشرف عام 1957. وبما أنَّ الزواج كان لأقرباء لنا، فإنَّه كان من الممكن أن نذهب مع والدتي من بغداد الى النجف، أنا وأخوتي عصام ورعد. كانت التقاليد النجفيَّة مازالت باقية على أصالتها سواء في الأفراح او الأتراح. ومن المعروف أن أهالي النجف وكربلاء والمجتمعات الشيعيَّة مبدعون جدّاً في التعبير عن حزنهم بشكل يسلب الألباب من حيث الكلمات والأداء وخلق الأجواء المساعدة في التعبير عن

الحزن والأسى ســواء في المجالس الحســينيَّة او في الوفيات العائليَّة.

إلّا أنَّـه من غير المعروف أن هـذه المجتمعـات هي مجتمعـات إنسانيَّة متكاملة. فهي كما تؤدي واجبها وتعبر عن حزنها في المآسي والأحزان، فإنّها تعرف ايضا كيف تحتفل بالأفراح والمسرات. لقد كان هذا الزواج وأنا في عمر العشر سنوات، فرصة نادرة لي للتعرّف على تقاليد الزواج في النجف. ومن بين هذه التقاليد أن رجال أهل العروســة لا يحضرــون احتفالات ليلة الحنة او احتفالات زفة الزواج وليلة الدخلة. إلّا أنني وأخوتي عصـــام ورعد، وإن كُنَّا من طرف العروس، إلّا أنَّه كان مقبولاً حضورنا لصغر سِنِّنَا.

ونحن في الطريق بين بغداد والنجف لاحظت أن هناك فتقاً في واجهة حذائي. أخبرت امي عنه. كانت إجابتها إنه لن يراه أحد وانه لا نســتطيع عمل أي شيء الآن. لم ارتحْ لذلك الجواب لعلمي أن أبي وإن لم يكن غنيَّاً بمعنى الكلمة، إلّا أنَّه كان التاجر الأول وأغنى شخص في العائلة في ذلك الوقت، وهذا سيكون موضع تساؤلات في أحاديث أقربائنا.

تبدأ مراســيم الزيجات عادةً بإرســال "المشــاية" لجسِّ النبض، للتعرّف ما إذا كان هناك قبول أولي في حالة التقدم للخطبة. بعد ذلك تتم الخطبة عن طريق قدوم وجهاء عائلة المتقدم للخطبة وبعض أصــدقاء الطرفين لطلب يد الفتاة ضــمن شروط مهر الحاضر والغائب وشروط الســكن وغيره. وفي حالة القبول تُقرأ

سـورة الفاتحة وترفع النسـاء الهلاهل من وراء الكواليس ثم يوزع شربت البرتقال والحلويات. بعد ذلك يحدد يوم لعقد القِران وهو الزواج الشرعي بحضـور السـيد، ويتم عندها تبادل لبس الحلقات (الدبل) في اليد اليمنى لتنتقل بعد ذلك لليد اليسرى في ليلة الدخلة. تتم مراسـيم عقد القِران قبل الزواج الفعلي، وعادة في بيت العروس وإن كان العريس يتكفّل بالتجهيز والتحضـير له. ثم بعد ذلك تحدد ليلة الحنة تعقبها في اليوم التالي ليلة الدخلة، وهي الليلة التي تنتقل فيها العروس الى بيت الزوجيَّة. عادةً تكون ليلة الحنة في مسـاء يوم الخميس وتكون الزفة عصر يوم الجمعة والدخلة مساء اليوم نفسه.

كان هذا الزواج هو أول زواج أحضره وأنا في عمر الوعي والذاكرة. كان يوماً صـيفيَّاً في بيت بطرف (محلة) "الجديدة" في النجف، وكان احتفال ليلة الحنة لدى النسـاء مع العروس في بيت أقرباء العروس ومعهم والدتي. أما حنة الرجال وكنَّا حاضرين فيها فهي في بيت الزوجيَّة. لم يكن لديّ أي فكرة عمّا سـيحدث في هذه الليلة. كان الوقت عصراً حينما جاءت مجموعة من الأشـخاص، أعتقد ثلاثة او أربعة يتوسّـطهم ويقودهم شـخصٌ نحيفٌ يلبس أحد أنواع الملابس النجفيَّة التقليديَّة وعلى رأسه كشيدة (غطاء رأس أصـوله تركية وشـامية). وبعد السـلام والكلام بدأتْ هذه المجموعة بتأسيس مسرح مؤقت وستائر في حوش البيت (بهو وسـط البيت غير مسـقف)، واستخدموا غرفة الضـيوف لغرض ملابسهم ومعداتهم. كلُّ هذا وأنا لا أدري ما الذي سيحدث؟ ومن هم هؤلاء الأشـخاص؟ ولكن الفضـول بدأ يزداد ويتعاظم بمرور الوقت. بعد ذلك وصلتْ كراسي مؤجرة صُـفتْ وسـط الحوش،

مقابل المسرح المؤقت. وبمجرد غروب الشمس بدأتْ مجموعات الضـيوف بالقدوم الواحدة تلو الأخرى، منهم من يلبس ملابس مدنيَّة (قميص وبنطلون) ومنهم من يلبس قاط (بدلة كاملة)، وعدد كبير منهم يلبس دشداشة وفوقها سترة (نصف أفندي) وهو زيٌّ لم أرَهُ في غير مدينتي النجف والكوفة. وبين فترة وأخرى أتذكر حذائيّ المثقوب وأحاول إخفاءه بلِي رجلي اليمنى خلف قدمي اليسرى.

كانت هناك مجموعة من شباب الوكافة (وهم من يتبرّعون بتقديم الخدمة) يستقبلون الضيوف ويقدمون لهم شربت البرتقال (عصير مخفّف)، والكل يُبارك ويُهنئ العريس ويقبّلونه، وكان جوابه في معظم الأحيان: يوم اللي إلك، او إن شاء الله يوم لفلان وهو ابن الضيف. اكتمل الحضور والكل كان متحمّساً وأنا وأخوتي الوحيدون الذين لا ندري لماذا كل هذا الحماس؟ رُفعت الستارة وظهر المنلوجست والمطرب والمُنكت والهزلي ذو الشخصية الطاغية على المسرح، والذي لاحقاً عرفت اسمه، إنّه "صادق القندرجي" وكما يقول المثل العراقي: جيب بطن واضحك. برنامج متكامل من البستات الغنائيَّة المفرحة والردّات الهزليَّة ذات الإيحاءات المريبة التي تعبّر عن الأعضاء والعلاقات الجنسيَّة بخجل. كانت بعض الأغاني او البستات مُطعَّمةً بكلماتٍ فارسيَّة متعارف عليها في المجتمع النجفي مثلها مثل بعض أغاني زهور حسين التراثيَّة.

كانت سـهرة ممتعة جدّاً ما زالت حلاوتها ودهشـتها في ذاكرتي. طبعاً الاحتفال كان على عدة فصول، غيّروا ملابسـهم عدة مرات، وفي الاستراحات يُوزع الملبّس (حلوى) والشربت والسكاير، والكل ينتظر بفارغ الصبر الوصلة المقبلة مع هذا الفنان المبدع والممثل الاسـتعراضي الموهوب. كانت ملابس الفرقة مختلفة ومتنوعة في كل وصـلة وهي ملابس ملوَّنة زاهية ومرقّعة وممزّقة للتعبير عن شـخصـيات مفترضـة. حركاتهم على المسرـح حركات قرقوزيَّة أو كارتونيَّة. انفعالاتهم الوجهيَّة والحركيَّة مشـابهة لحركات شـارلي شـابلن في أفلامه اللاصـوتيَّة. اسـتطاع صـادق القندرجي في تلك الليلة، وعلى ذلك المسرـح المؤقت الصـغير، أن يقدم أعظم كرنفال شاهدته عيناي أبداً.

والقندرجي هي مهنته الحقيقيَّة ومحله معروف في النجف، فهو يصـنع ويبيع ويصـلح الأحذية والنعل والقباقيب. إلّا أن صـادق القندرجي لم يكن شخصاً هزليّاً يُضحك جمهوره ويسليهم فقط، إنما كـان أيضـاً من القُرّاء في التكيـات (حسـينيّـات مؤقتـة) والحسـينيّات ويقرأ التعزية في الوفيات. كذلك يُقدّم الأناشـيد والموشـحات الدينيَّة في المواليد وحفلات الختان. وليس هذا كله وإنّما من خلال فنّه ومهنته كان داعية ومصـلحاً اجتماعيّاً وناقداً سـاخراً للإخفاقات الحكوميَّة وللتقاليد البالية، ومدافعاً عن حقوق المظلومين وناشـطاً في القضـايا الوطنيَّة. وعلى الرغم من أنّه كان شـاعراً ومؤلفاً للمسرـحيات، إلّا أنّه كان على علاقة وثيقة مع الشـيخ عبد الحسـين أبو شـبع، الشـاعر الشـعبي الحسـيني والمناضـل المُضـطهَد في كلِّ العصـور. تأثّر القندرجي بالعديد ممن سـبقوه وخاصـة بالشاعر المعروف والذي سـبقه في هذا المضمار

"حسـين قسـام" في نظم القصـيدة الهزليَّة السـاخرة. ومن الذين عملوا مع القنـدرجي، وكان من أحـد أفراد الكمبارس معـه "ياس خضر" الذي أصبح لاحقاً مطرباً مشهوراً جدّاً.

ما زلنا في استكمال طقوس ومراسيم الزواج على الطريقة النجفيَّة. ففي اليوم التالي وهو يوم الجمعة، جاء نحو عشرـين الى خمسـة وعشرـين شـخصـاً من أقرباء وأصـدقاء العريس المقربين في نحو خمس او ست سيارات، وبدأنا رحلة بعد الظهر الى أفضل وأنظف حمـام عمومي في النجف. ذهبنـا الى الحمـام وكان للعريس مكان خاص (مقصـــورة) ومدلكجي (مســـاج). أما الباقون فكنَّا في البهو العام في الحمام. طبعاً لا يوجد دُش (شـاور Shower) في الحمام، وإنما أحواض صـغيرة وطاسـة وصـابونة رقي (غار) وليفة وحجر أسـود. يوجد في هذا الحمام وهو حمام رئيسي، حوضـان كبيران للغطس. والحمامات العامة هي مشـــابهة لما هو متعارف عليه اليوم بالحمام التركي، هناك حرارة تحت أرضـــيته؛ ولذلك تجد البخار مكثفاً في أجوائه، أي أنه حمام وصونا باث (Bath Sauna) في آن واحد. أكمل العريس حمامه وأكملنا معه وكان نظيفاً حالقاً بهيَّاً، تقول عنه إنّه العريس من دون خطأ من بُعد عدة أميال.

ركبنا السيارات وبدأت زفة العريس، واتجه موكبنا من النجف الى كورنيش الكوفة على شاطئ نهر الفرات. وبذلك نكون قد انتقلنا من حرارة النجف الصحراويَّة الى ريف الفرات الأوسط المكثّف بأشجار النخيل والمياه التي ترطّب أجواءه. نزلنا في أحد المقاهي الصيفيَّة الجميلة عصر يوم الجمعة لشرب الشاي والبيسي كولا،

في استراحة تؤهّل العريس لليلته الكبيرة. كنتُ أرى وأسمع البعض يتحدث معه بهمس وبرموز وضحك ذي دلالات مرتبطة بما سيحدث في تلك الليلة وهي ليلة الدخلة. وفجأةً قام أحدهم ليعلن بدأ مسيرة العودة الى النجف، وصاح بأعلى صوته وشاركه الجميع مباشرة:

"ألف الصلاة والسلام عليك يا رسول الله محمد صلوات"

وركبنا السـيارات عائدين ونحن نعيد ونعيد بالصـلوات إلى أن وصـلنا البيت الذي كان مملوءاً بالنسـاء وركض بعض الأطفال الواقفين أمـام الـدار الى الـداخـل يصـيحون: اجو اجو... وإذا بالهلاهل تصـدح عبر السـماء بلا توقف وبأنغام وألحان مختلفة. أهازيج النسـاء كانت مختلفة ومفرحة أكثر من صـلوات الرجال، أتذكر قسماً منها:

"شايف خير ومستاهله"
"يا فلان طفي الكلوب .... خدهه يِشع ويا الروب"
(فلان: اسم العريس، كلوب يعني المصباح او الضوء)
"يا فلان ياجكليته .... حامض حلو باكيته"
"فلان حلو وزين .... فلان يحفظه الحسين"

كانت العروس في غرفتها وكانت هناك سجادة صلاة أمام الغرفة. وقف العريس يصـلي ركعتين للتبرّك، أمام أهازيج وهلاهل النسـاء التي لا تنقطع، وحينما بدأ يصلي كانت الردّة:

"خلونه يصلي لا تشدهونه......... خلونه يصلي لا تشدهونه"

لا أدري كيف صــلى الركعتين وكيف اســتطاع التركيز، ولكنّه قامَ وســجدَ وجلسَ وقبَّلَ التربة وتوكلَ على الله. دخل عُشَّ الزوجيَّة الذهبي وأســدل الســتار على مرحلة العزوبيَّة والحريَّة من حياته. وبهـذا انتهـت الحفلـة العـامـة لتبـدأ الحياة الخـاصـــة للعروس والعريس في عشِّ الزوجيَّة الخاص.

دروسٌ مبكرة في العطاء

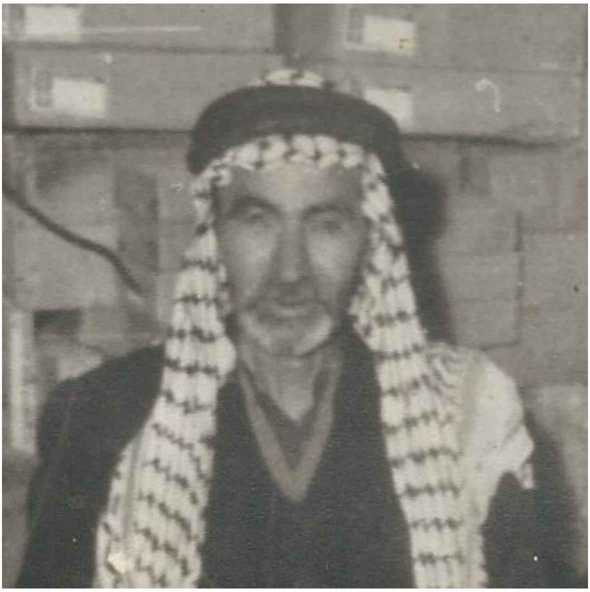

العِلاقة بالأب والأم مليئةٌ بالمحبة والاحترام في معظم الأحيان، إلا أن العلاقة بين الأحفاد والأجداد، علاقات لا تشوبها سلبيّات التربية في المحاسبة والقصاص والتعنيف القاسي في بعض الأحيان. وبما أنني كنت أول وأكبر الأحفاد بالنسبة إلى بيبي (جدّتي) وجدِّي من ناحية أمّي، فقد كنت قريباً إليهما كثيراً ومُدللهما.

ومن بين أهم ذكرياتي مع جدِّي هي، حينما كان يأخذني معه إلى كربلاء والنجف والكوفة، حينما كان عمري ما بين التاسعة والاثني

عشر عاماً. رحلة ثنائيَّة تبدأ عصر يوم الخميس من منطقة الشواكة في الكرخ، حيث سيارات التكسي خمس نفرات التي تعمل على خط بغداد- كربلاء، وخط بغداد- نجف. نصل كربلاء قبل غياب الشمس، إذ نبدأ بزيارة الإمام الحسين (ع) ثم أخيه العباس (ع). وبعد أداء مراسيم الزيارة، يبدأ جدِّي رحلته في السوق القديم، يُسلّم على الكثيرين، ويعرفه العديد من التجار. بعد ذلك ندخل في درابين (أزقة) كربلاء القديمة المتشعّبة من السوق ذات البيوت الشعبيَّة القديمة. يقف جدِّي أمام باب أحد الدور ويطرق الباب. تأتي امرأة من وراء ستار خلف الباب، ينظرون إلينا من زاوية الستار، "أهلا حجي أبو مهدي، سلام عليكم، تفضل حجي"، يجيبهم جدِّي "لا شكراً، بشروني شلونكم، شلون فلان وفلانة وفلان". يسأل عن العديد من الأشخاص الذين لم أسمع بهم سابقاً في حياتي. واقف بجانب جدِّي، لا دور لي في الكلام، ورأسي يصل إلى جيب صايته الجانبي (الملابس التقليديَّة، أنظر إلى الصورة). ألاحظ أن يده في داخل جيبه، وكأنّها في حالة مخاض مستمر. يسحبها قليلاً ثم يتراجع، يحاول مرة ثانية وثالثة بشكل متردّد، إلى أن يسحبها وكفه مغلق على شيء ما بداخلها، ويمدّ يده ويقول بما معنا، تفضلي حجيَّة، واعذرينا من التقصير. ردود الفعل مليئة بالكبرياء، وعدم التقبّل، ومرة أخرى يدعوننا إلى الدخول إلى البيت، وهو يرفض طبعاً. في هذه الأثناء يسألون عن بيبيتي وأمي وأبي وعن أناس آخرين لا أعرفهم. في نهاية الأمر يفرض نفسه عليهم ويرغمهم على أخذ ما في يده، وننصرف.

"منو هذوله جدو؟"، "إنّهم يقربون لنا من بعيد جدو"، ... نستمر للبيت الثاني والثالث والرابع. الطريقة نفسها، والموال

نفسه. لا يقبل الدخول للبيوت، وكل البيوت تسكنها نساء فقط. ولا أعتقد أنَّ الأمر كان عفويّاً، وإنّما مقصوداً. إذ إنّ هؤلاء السيدات، إما مطلقات أو أرامل، أو أية حالة اجتماعيَّة أخرى هو أعلم بها. ولكن معظمهم من ذوي القربى المتعففين الذين ظروفهم المعيشيَّة صعبة. كان يتكلم معهم باللغة العربيَّة، وقسم منهم يتحدثون عربي وفارسي مخلوط، وقسم عربي مكسّر، والنساء الكبيرات في السن لا يتحدثن سوى باللغة الفارسية، وكان يتكلم معهم بالفارسية التي كان يجيدها.

نذهب بعد ذلك كي نتعشّى أو نفطر إن كان رمضان، في أحد مطاعم السوق، ثم نذهب إلى الفندق (خمس نجوم شعبي!!!)، وننام في السطح على الجرابي (الأسرة) المصنوعة من الخيزران. ومن السطح نرى قبة الإمام الحسين وقبة العباس (عليهما السلام). وبعد قليل من الوقت يبدأ الهواء بالتغيّر تدريجيّاً من كونه حارا جافا، إلى ناعم رطب لندخل في نوم عميق حتى الصباح الباكر. نصحو على آذان الفجر من مآذن العتبات المقدّسة قبيل الفجر بقليل، بصوت يتسم بالورع والخشوع والقدسية. يتبع ذلك بزوغ أشعة الشمس الصيفيَّة التي تحرق العيون.

لا أتذكر كثيراً مراسيم زيارتنا للأئمة مع جدِّي بوضوح، لكن الذي أتذكّره أن زيارته سريعة لأنّه يريد أن ينجز مهام اجتماعيَّة وعائليَّة. أتذكّر أنّه كان يحب منطقة "خيمكة" (الخيم الزينبيَّة)، حيث كانت منطقة قريبة من الصحن وواسعة ومناسبة لاستراحة الزوّار. وفي اليوم التالي نبدأ رحلة بـ "الربل" (عربة يجرها حصان)،

وهي رحلة ممتعة لمناطق خارج مركز كربلاء القديم. كنت أراقب الحصـــان أكثر مما أشـــاهد معالم الطريق. أما فيما يتعلّق بجدِّي فإنّه كان يكمل مهمته، لتفقد بقية العائلات المحتاجة. يتوقف الربل أمام بيوت يعرفها جدِّي جيداً، ليقوم بالمهمة نفســـها من دون تعب أو ملل. وفي مناســـبات أخرى كان يصـــحبني معه إلى مدينتَيْ النجف والكوفة ليؤدي المهمات العائليَّة نفسها.

واليوم وبعد مرور أكثر من ســـبعين عاماً ما زلت أتذكر جدِّي وما كان يقوم به نيابة عن نفســـه وعن والدي الذي كان جدِّي يرعى مصـالحه آنذاك. اليوم أتذكّر جدِّي رحمه الله، وأتسـاءل لماذا لم يأخذني جدّي إلى مدينة الألعاب أو الى الســـينما أو لمتنزه أو أماكن لعب الأطفال أو أن يشـــتري لي دوندرمة (بوظة)، لكان قد أدخل السرـور إلى قلبي كثيراً وأنا طفل صـغير، ولتذكرت ذلك له بامتنان. هل كانت تلك الرحلات الثنائيَّة، عفويَّة غير مقصـــودة؟ أم أنّها كانت تربية من نوع مميز وبطريقة متقدمة، ذات هدف سامٍ بعيد الأمد لا تجده في كتب التربية الحديثة؟ فما الذي أراد أن يصـــل إليه جدِّي؟ من المؤكد أنه أراد أن يعطيني درســـاً بالكرم والعطاء وتفقـد المحتـاجين بطريقـة يصـــون بهـا كرامتهم ويحفظ مـاء وجوههم؟، لم أفهم الموضـوع في حينه، ولكن التكرار في الزيارات معه جعلني أدرك نبل عمله وســـعة كرمه. لقد كان جدِّي قريباً للأئمة الأبرار بأعمالـه، لأنّه كان يقضيــ معظم وقته في العمل الصـــالح، ووقتاً أقل من ذلك في التعبّد والزيارات. رحمك الله جدي، رسالتك وصلت منذ الطفولة، ونتمنى أن نكون عند حسن ظنكم.

دراما المواصلات

مخالفة مروريَّة في شارع الرشيد

من بين أهم شـوارع بغداد بالنسـبة لي كان شـارع الكرَّادة الشرقيَّة داخل حيث بيتُنا وأهلُنا وأصـدقاؤنا، وشـارع الرشـيد قلب بغداد النابض ومركزها التجاري الحي، ففيه تجارتنا في سـوق الشـورجة العريق، وشارع أبو نواس حيث كان متنفّسنا ومنتزهنا وفيه نقضي أمسياتنا ولياليناا التي ما زالت ذكراها خالدة في نفوسنا. وفي يوم ما حدث ما حدث في أهم شوارع العاصمة بغداد حينذاك. ففي العام الدراسي 1977/ 1978 كنت مدرِّسـاً في الجامعة المسـتنصريـة وكانت أختي عالية طالبة في دبلوم السياحة صباحي وكان أخي رعد في الصـف الثالث إدارة واقتصـاد قسـم الدراسـات المسـائيَّة. وكان يومنا يبدأ بأن نخرج ثلاثتنا معاً من الدار ونتّجه لأداء أعمالنا، إذ استخدم شارع ابي نواس دخولاً الى شارع الرشيد كي أوصل أخي الى سـوق الشـورجـة كي يمـارس عملـه، ثم نتّجـه أنـا وأختي الى المستنصريَّة، هي كطالبة جامعيَّة وأنا كأستاذ فيها.

وحدث في صباحات أحد الأيام أن توقف باص الأمانة الأحمر "ذو الطابقين" في شارع الرشيد أمامي بطريقة مائلة حجبت استخدام الممرين. ولما كان السـير خلفي مزدحما وبدأت أبواق السـيارات تضرب للسماء قررت تجاوز باص الأمانة. تطلب ذلك عبوري على الخط الوسطي الأصفر في منتصف الشارع. وبعبارة أخرى سجلت مخالفة مروريَّة على نفسي.. ولحسـن حظي! كان هناك شرطي مرور وسـط الشـارع ينتظرني، لم أرَهُ لأنَّ الباص كان قد حجب

الرؤيـة عنّي. المهم طلـب منّي شرطي المرور الرَكن على جنـب وتوقفت فعلاً، وكان ذلك في منطقة ســاحة الغريري (ســاحة الزعيم عبـد الكريم قـاســم حـاليَّاً) قرب عكـد (زقـاق) العمـار المعروف. حضرـت إجازة السـوق بيدي كي أناولها لشرـطي المرور لعلمي أني فعلاً ارتكبتُ مخالفة مروريَّة.

شارع الرشيد

وصـل إلينا الشرـطي وكان شـاباً أصـغر منّي بما لا يقل عن عشرـ ســنوات آنذاك. وابتدأ كلامه بالتهجّم من أنّكم مســتهترون لا تبالون بالقوانين. قلت له: أخي اعتذر عن المخالفة وهذه اجازة السـوق تحت تصرـفك. انزعج من حسـن تصرـفي! وقال لا هذا لا يكفي "انتوا ينراد واحـد ينزعلكم النطـاق (الحزام العســكري) ويوكعلكم دك". بدأتْ أختي ترتجف وتبكي، طلب أخي من الشرطي أن يعاملني باحترام باعتباري أســتاذا جامعيا، إلّا أن الشرـطي ازداد

غيّاً وتلوّثت ألفاظه أكثر وأكثر. تهستر أخي رعد ونزل من السيارة متحدياً الشرطي قائلاً له: لا يحق لك أن تكلّمنا بهذا الأسلوب. نزلت من السيارة كي أفرّق بين الاثنين واضطررت أن أزجر أخي بشدّة لمعرفتي بخطورة تهمة الاعتداء على شرطي أثناء أداء واجبه. وبينما نحن نجادل الشرطي تجمع المارة بشكل يجلب النظر، وإذا بسيارة بيك أب حمراء تتوقف، سأل أحدهم الشرطي "هاي شكو" أجاب الشرطي سيدي هؤلاء شتموا الحكومة!، كان وقع ذلك كالصاعقة، طالبونا بالصعود على ظهر البيك أب كي يأخذونا لا ندري الى أين؟ ولم ينقذنا سوى تطوع بعض الواقفين لتبيان الأمر لهم. طبعاً هذه كانت سيارة أمن أو مخابرات. وأخيراً صاح أحد أفراد البيك أب بالشرطي: "اصعد وياهم وروح للنقطة" (نقطة شرطة المرور في ساحة الوثبة). أراد الشرطي أن يصعد في الخلف جنب أختي، وإذا بأخي يقول له: متصعد معنا، وغلق الباب على يده فصرخ الشرطي وسال بعض الدم من يده. لفَّ يده بالمنديل وصعد في المقعد الأمامي، وذهبنا الى النقطة.

ساحة الوثبة: شارع الرشيد

نزل الشرطي قبلنا متوجهاً الى النقطة التي هي عبارة عن كرسيين وطاولة صغيرة وضباط شرطة اثنين عقيد ونقيب. بدأ الشرطي يحدثهم بقصته الملفقة، ولحسن الحظ لمحت أن أحد الضباط كان النقيب قيس العزاوي وهو من الكرَّادة الشرقيَّة محلة البو جمعة وكان من الدورة التي قبلي بسنة في المتوسطة الشرقيَّة. كنتُ متأكداً من أنه سوف يُميّزني. جاء الشرطي وطالبنا بالذهاب للضابط معه. قلتُ لأخي لا تخرج من السيارة أبداً. ابتدأ النقيب قيس بسؤال الشرطي: أو لست خريج دورة الشرطة السياحيَّة؟ قال: نعم سيدي. أو لست أنت الذي كان لديه مشكلة مماثلة قبل يومين؟ قال: نعم سيدي. سألني العقيد ما الذي حدث؟ سردتُ القصة له كما هي. قال لي هل تسكن في عكد العمار؟ قلتُ لا أنا كرَّادي. قال هل أخوك الذي اعتدى بالسكين على الشرطي؟ أجبته أخي لا يملك السكين وإنما الموضوع حدث عفواً حينما أغلق باب السيارة. قال ابعث لي أخاك. قلت سيدي أنا السائق وأخي ليس

طرفاً، قال يجب أن أتحدث اليه. ذهبت لأخي وأوصـيته أن يتكلم بهدوء وألا يطول لسـانه أبداً. إلّا أنّه مع كل التوصـية خربط كثيراً لأنّـه أحسَّ أن الشرــطي اعتـدى علينا فعلاً. ولكن النقيب قيس حسم الموضوع بسرعة، وقال غرامتك خمسة دنانير. دفعتها وأنا المنون. شـكراً لشـباب عكد العمار وشـكراً للنقيب قيس العزاوي وإلا لتطور الأمر بما لا تحمد عقباه.

وحينما اسـترجع ذاكرة هذا الحدث أسـأل نفسيـ، ما هي مشـكلة هذا الشرــطي؟ لماذا يريد أن يضرــبنا بالنطاق؟ لماذا لم يحترم شبابنا؟ ولماذا يتجاسر علينا أمام أختنا؟ حدث هذا في زمن يعتبره الكثيرون زمن الأمن والأمان! إذا كان هذا ما يحدث في زمن الأمن والأمان في قلب العاصـمة بغداد وفي شـارع الرشـيد، فما الذي كان يحدث وراء الكواليس؟ والأهم هو ما الذي يحدث الآن في زمن الفساد والفوضى والانفلات والحرس الخاص والمرافقين والسلاح المنفلت الذي لا يعد ولا يحصى.

تصادم في شارع الجمهوريَّة

ركبتُ تكسي- النفرات من الباب الشرقي متوجهاً الى الشورجة، حيث مركز تجارتنا في أحد أيام شتاء عام 1969. كان السائق الذي في منتصف أربعينياته، يدخّن سيجارته ويستمع بشرود واضح الى أغاني فيروز الصباحيَّة. كانت ظاهرة التدخين مقبولة ومتعارفاً عليها في تلك الأيام. معظم الركاب يبدو أنّهم موظفون وفي حالة من الاستعجال للوصول الى مآربهم. بدأ السير يتباطأ كلما ابتعدنا عن ساحة التحرير، إلّا أنه تباطأ أكثر بعد عبور ساحة الخلاني ومن ثمّ شارع النهضة، وأخذ الجميع يؤفف من الازدحام وينظرون الى ساعاتهم بشكل متكرر، وبدأت أصوات أبواق السيارات تثقب الآذان وتغطي على الألحان الفيروزيَّة.

وقبل الوصول الى سوق الشورجة وبالقرب من جامع الخلفاء حدث أن تصادم التكسي- الذي نحن به مع سيارة شيفروليت (ستيشن واكن) عسكريَّة تعود لضابط برتبة لواء كما يدّعي سائقها وهو عسكري برتبة عريف. ونتيجة للازدحام حاول العريف أن يفتح طريقاً له من أمام التكسي- الذي نحن به. وبما ان سيارة سائقنا كانت واقفة وليست متحرّكة، فإنَّ الخطأ كان واضحاً من العريف سائق سيارة اللواء، علماً أنَّ اللواء لم يكن في السيارة. نزل العريف من سيارته مُكيلاً أبشع الشتائم وأبذأ الألفاظ على سائق التكسي- المسكين الذي لم يستطع فتح فمه ولو بكلمة واحدة. أخيراً طالب لا بل أمر العريف سائقنا بالذهاب الى مركز شرطة

النهضة لتسجيل الحادث. وافق سائق التكسي على ذلك مرغماً. لم يتحدث او يتدخل اي من الركاب في الموضـــوع، اما لعدم اهتمامهم او لخوفهم من العريف. بعدها طلب وتوسّـل الســائق من جميع الركاب كي نذهب معه كشـــهود ليثبت حقه وينقذ نفسـه. اعتذر الجميع لوجود أسـباب حقيقيَّة لأنّهم موظفون او أسباب وهميَّة كي يتملّصوا من المسؤوليَّة. أما أنا فكنتُ أصغرهم سـنّاً وكانت عليَّ مسـؤولية فتح باب متجرنا في الشـورجة ولديّ عذري المشـروع. ولكن لم يكن كل ذلك ما أفكر به. كان تفكيري كله ينصب على سائق التكسي المسكين وكيف سيثبت حقه أمام سـائق عسـكري برتبة لواء. لم أجد الموضـوع منصـفاً او متوازناً. ولما كنت "ممن يحملون السـلم بالعرض" ويمشـون به كما يقولون، قررت الذهاب معه كي أمنحه فرصـة متكافئة وامنح نفسي فرصة لأكون جزءاً من صراع غير متكافئ.

وصـلنا الى مركز الشـرطة وكان العريف قد سـبقنا للحديث مع مأمور المركز. وبقينا أنا والسـائق في خارج الغرفة بالانتظار. أمرنا الشرطي كي ندخل على المفوّض مأمور المركز. دخلنا وبادر المأمور بسـؤالي بطريقة سـلطويَّة عنيفة: من أنت وماذا تعمل هنا؟ قلت أنا راكب في السـيارة وجئت كشـاهد. ومن طلب شـهادتك؟ قالها بعصـبيَّة شـديدة اللهجة. قلت لا أحد، تطوّعت لاعتقادي بأنّكم سـتحتاجون الى شـاهد عيان محايد. اسـتمريت وبلغة اكاديميَّة وكأنّي أترافع نيابة عن موكلي: إنّك أمام شخصين كل واحد سيروي قصّته، ألا تريد أن تسـمع رأي شـاهد لا مصلحة لديه مع أي من الطرفين؟ طبعاً كل هذا وهو يرى أنّي شـاب بهندام لائق وأحمل معي كتبا جامعيَّة ويسـتطيع التدليل منها عن أمور أخرى!، كلامي

بهذا الشكل أثار حفيظته، وقال: "لا أريد شهادتك، اطلع قبل ان يخرجك ابو اسماعيل (الشرطي) بالجلاليق (بالركل بالأرجل على المؤخرة)". وقبل أن أجيبه وأورّط نفسي أكثر، سحبني سائق التكسي من يدي وطلب مني الخروج متوسّلاً، وقال لي: الله وياك عَمي، روح، الله يخليك لا احتاج الى شهادتك، واستخدم كلتا يديه لمسك كتفيّ كي يحول وجهتي، ودفعني صوب الباب كي أخرج، واستمر يؤشر لي بيديه روح روح (اذهب اذهب).

خرجت من مركز الشرطة مُهاناً ومكسور الجناح لا حول لي ولا قوة عارفاً أن ما سيحدث لسائق التكسي المسكين سيكون ظلما وبهتانا. خرجتُ وأنا أفكر هل سينام السائق في بيته هذا المساء أم لا؟ هل ان سائق التكسي هو مالك للسيارة ام يعمل بالأجرة بها؟ وإذا غرّموه هل لديه المال كي يدفع؟ إلا أن أكثر ما أدهشني وافرحني بالوقت نفسه هو شهامة وشجاعة وأخلاق سائقنا الذي تغيّر همّه فجأة وبلحظة، فبدلاً من أن ينقذ نفسه قانونيّاً وماليّاً ويستفاد من إفادتي، قرر أن يحافظ على كرامة شاب وطالب جامعي من الإهانة والاعتداء من قبل كامل القوات المسلحة العراقيَّة، "الجيش الذي هو سور للوطن والشرطة التي هي في خدمة الشعب". ألف شكر وتحية خالصة لشهامة سائق التكسي الكادح ولحسن أخلاقه ولحمايتي من الحماة.

سفرة إلى الصدور

صوتٌ يُناديني وجهَ الصباح: محمد حسين... محمد حسين... محمد حسين... كان هذا الصوت آتياً من الشارع ونحن مازلنا نائمين في السطح كعادتنا في الصيف. طفرتُ من فراشي ونظرتُ من أعلى كي أرى رياض الطحّان واقفاً بباب دارنا ومعه سيارة أخيه سعيد الـ "سمكا" الفرنسيَّة الصغيرة الحجم. كان يوماً من أيام الجمع في العطلة الصيفيَّة عام 1964. أيقظت ابن عمتي حسن، ونزلنا من السطح وبدّلنا على استعجال كي نلتحق برياض. "ها رياض شنو الموضوع؟" "اصعدوا بالسيارة ذاهبين للصدور". صعدتُ بالمقعد الأمامي وكان هناك صحن من الفرفوري (البورسلين) جالساً قبلي عليه. رياض ما هذا الماعون (الصحن)؟ قال لا عليك، بعثوني كي اشتري قيمر (قشطة) لفطور الصباح ولكنّي قررتُ أن انتهزها فرصة ونذهب سفرة الى الصدور. رياض يعني أهلك "شراح يتصورون؟" قال إنّهم متعودون على "دگاتي". مررنا على حكمت في شارع الهندي وأصبحنا أربعة مراهقين سارقين لسيارة أهلهم وذاهبين الى منطقة سدة الصدور شمال المقداديَّة (المعروفة بـ شهربان بالكردي) على نهر ديالى في منطقة جبال حمرين.

وصلنا الى نقطة تفتيش مدينة بعقوبة وهي المدينة الرئيسة في الطريق الى الصدور. طلب الانضباط العسكري من رياض رُخصة السوق. رياض قال لي ناولني الرُّخصة من جيب السترة. لم أتمالك نفسي- وبدأتُ بالضحك. افتعل رياض مشهداً وبعصبيَّة ظلَّ يُطالبني بالرُّخصة، والكلُّ بدأ يضحك الى أن ضحك الانضباط

العسكري، وقال: "امشي. هذه المرّة راح امشيها، دير بالك سوق على كيفك (على مهلك)". وصـلنا الصـدور وكان هناك كازينو سياحي. شربنا بيبسي. كولا وذهبنا نتمشّى. بتجاه السد الستراتيجي المشيّد على نهر ديالى الذي ينبع من المرتفعات الشماليَّة الشرقيَّة من العراق وهو أحد روافد نهر دجلة الخير ويصبُّ فيه جنوب بغداد. والغرض من السـد هو الحفاظ على سـهل ديالى من الفيضان، وكذلك رفع مناسيب المياه كي تسقى الأراضي الخصبة التي تقع على شرق وغرب نهر ديالى. إنَّه موقع جميل جداً حيث المياه والمرتفعات المتموّجة والطبيعة الخلّابة والزهور البريَّة بمختلف أطيافها منتشرة على حافات السـهول وأسراب الطيور التي ترتفع وتهبط كي تجلس على موجات المياه، لا ندري إن كانت تؤدي مهمة ما أم أنّها تتغنّج أمام بعضها البعض.

شـاهدنا بعض السـيارات كانت تعبر السـد الى الجهة الأخرى. تحمَّس رياض لهذه الفكرة التي تحوي الكثير من المخاطر، ركبنا معه وعبرنا السـد نحو الجانب الآخر بسـلام على الرغم من أنَّ النهر كان من جهته الشـماليَّة فائضاً والماء يسيح فوق السـد الى الجهة الأخرى. إلّا أنّه في عودتنا أسرع رياض قليلاً، فطفر الماء على الماكنة وأطفأها. وقفنا في منتصف السد وبدأتْ شدّة المياه تزداد قوّةً وشـعرنا بأنَّ السـيارة بدأتْ تتحرّك وخفنا من أن ازدياد حدّة المياه سـوف تقذفنا من السـد الذي لا سـياجَ له نحو هاوية النهر من الجانب الجنوبي. بدأنا نصـيح اسـتغاثةً لحين لاحظنا الواقفون فجاءت سيارة سحب يبدو أنّها مخصصة لهذا النوع من الاحتمالات وسحبتنا الى الجرف الآمن وبدأنا نتنفّس الصعداء.

قضـينا سـويعات جميلة جدّاً هناك، ولكن بعد واقعة احتماليَّة الغرق، قرّرنا الإسراع بالعودة الى الكرَّادة الشرـقيَّة. إلّا أنّه بعد أن اجتزنا مدينة شـهربان بنصـف سـاعة تقريبا حدث ما لا تحمد عقباه. تصـاعد صـوت مربك وعنيف من مقدمة السـيارة أعقبها بخار كثيف يتصـاعـد من تحت البنيد (الهود) بتجاه النافذة الأماميَّة. اضـطر رياض الى التباطؤ ثم الوقوف على جانب الشـارع كي نرى ما حدث. نزل حسـن ورفع البنيد كي يرى أسـباب الصـوت. حسـن كان يعمل مع أقارب لنا ميكانيكي سـيارات في مدينة النجف الأشرف. بلحظات حدد المشـكلة واقترح الحل: طارت ريشـة من مروحة التبريد وضربت الراديتر وأحدثت ثقباً فيه. يجب أن أفكّك المروحـة والراديتر وآخـذهمـا الى شـهربـان كي ألحمهمـا وأعود. ولحسن الحظ كان هناك صندوق أدوات تصليح في السيارة. وإذا بحسـن يبدأ بتفكيك كلّ شيء وعبر الشـارع مع رياض الى الجهة الأخرى واوقفوا لوري وصعدوا به عائدين باتجاه شهربان.

بقينا أنا وحكمت نحرس السيارة. كانت الساعة بحدود الثانية بعد الظهر والحر على أوجه ورذاذ التراب الذي ترميه السـيارات المارة قد أعمى عيوننا. بدأ الملل والضـجر وبعض الخوف يسـيطر علينا بعد مرور فترة ليست قليلة. وسفرة كهذه لم يسبقها أي استعداد من حيث المشرـوبات او المأكولات، لا يوجد أي شيء معنا كي نتلهى به. سـبقني حكمت وقال "آني جوعان وميت من العطش! أجبته وأنا كذلك". ظللنا نفكر ونحن في شـارع عام لا مطعم ولا كافيه ولا بقال ولا عطار؟ رصـد حكمت بيتاً طينيَّاً بعيداً جدّاً عبر الشارع العام. سألني "ما هو رأيك نقفل السيارة ونتمشّى لهذاااااك

البيت؟" وافقت على الفكرة لأنّه مضى أكثر من ساعة منذ أن رحل حسن ورياض وربما لا يرجعون قبل ساعة او ساعتين.

وصلنا المنطقة التي بها ثلاثة أو أربعة بيوت طينيَّة في منطقة قاحلة، لا شيء يُذكر حولها سوى أعشاب هنا ودغل هناك. طرقنا باب أول بيت جاء أمامنا، فتحت لنا الباب امرأة عُربِيَّة ذات ملامح فلاحيَّة وجمال طبيعي بلا رتوش. "خالة انكسرت بينا السيارة واحنا عطشانين"، قالها حكمت من دون تردد أو خجل. ومن دون تفكير قالت: "هلا بيكم يُمّه، تفضلوا". دخلنا باحة البيت وكان هناك حصيرة من الخوص مفروشة تحت ظلال شجرة رمان. جلسنا بانتظار ما ستقدمه لنا هذه المرأة المضيافة التي كانت وحدها في البيت، والتي تصرّفت معنا وكأنَّنا أبناء الجيران وتعرفنا وتثق بنا. ذهبت الى الحِب (الكوز) الذي كان في إحدى زوايا باحة البيت وجاءت بطاسة (إناء من الألمنيوم) مملوءة بأعذب ما شربنا من ماء في حياتنا. لم تكتفِ بذلك وإنما أعقبته بصحن به نحو ثماني او عشر تمرات من نوع الزهدي اليابس وطاسة لبن وخبز شعير ورمانة كبيرة من رمان شهربان المشهور جدّاً.

هجمنا من دون استئذان او مجاملة على التمر واللبن والخبز وكأنّنا لم نأكل شيئا في حياتنا. وبعد أن شربنا اللبن وأكلنا التمر والخبز برمته، أراد حكمت أن يمدَّ يده على الرمانة. منعته من ذلك عدّة مرّات. أخيراً قلت له: حكمت ألّا تعلم أنّها قدمت لنا كلّ ما لديها؟ ارجوك أترك لها هذه الرمانة على الأقل. قال حكمت الرمانة كبيرة نأكل نصفها ونترك لها نصفاً. عند ذلك وقفتُ وقلتُ: خالة شكراً جزيلاً على الضيافة وممنونين جدّاً. قالت: "خالة ابقوا على

الجاي"، قلت لا خالة لأنَّ سيارتنا بالشارع. خرجنا من بيت المرأة التي ما زال مُحياها يتماثل أمامي ونحن شبعانين ومستعدين للانتظار الى الليل إذا تطلب الأمر ذلك. في حدود الساعة الخامسة عصراً نزل رياض وحسن من لوري كان قادما من شهربان. تمَّ لحم ريشة المروحة والراديتر. باشر حسن العمل، فأعاد نصب الراديتر في مكانها ثم أضاف المروحة وربط القايش على الماطور. وإذا لم تكن هذه أعجوبة فكيف يمكن وصفها.

المرأة التي اســتضــافتنا وأكرمتنا من الصــعب نســيانها، وما زالت حلاوة طعم ذلك الأكل البسيط من تلك اليد الكريمة جدّاً في فمي لا تفارقني كلما تذكّرت ذلك اليوم. ولشـــاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري قصيدة لـ (أُمّ عوفٍ) مستلهمة من تجربة مماثلة مرَّ بها، كلما اقرأها أتذكّر تلك السيدة الكريمة وذلك المشهد الذي عبر كالأثير ورسخ في مخيلتنا، وهذه بعض أبياتها:

يا (أُمَّ عوفٍ) عجيباتٌ ليالينا

يُدنين أهواءنا القصوى ويُقصينا

يا (أُمَّ عوفٍ) بلوح الغيبِ موعدنا

هنا وعندكِ أضيافنا تلاقينا

يا (أُمَّ عوفٍ) وما يُدريك ما خبأتْ

لنا المقاديرُ من عُقبى ويُدرينا

لا بدَّ من مطلعٍ للشمس يُفرحنا

ومن أصيلٍ على مهلٍ يُحيينا

جلسة فصل عشائريَّة

وقع حادث صِدام مروّع بين أخي عصام مع سائق سيارة أخرى وجهاً لوجهٍ في شارع السدّة الرئيسي الملتوي في مدينة الدورة إحدى ضواحي جنوب بغداد في جانب الكرخ، والتي تطلُّ على الشاطئ الغربي لنهر دجلة، مقابل الجادرية نهاية شبه جزيرة الكرَّادة الشرقيَّة. كان أخي عصام معلّماً في ابتدائيَّة الدورة عام 1977. حدث التّصادم عصر أحد الأيام بعد انتهاء الدوام. كان الصِّدام شديداً جدّاً، نُقل على إثره الاثنان الى مستشفى الكرامة. ذهبتُ الى مستشفى الكرامة لتفقده، قالوا إنّهم قد أخرجوه بعد تضميد جرح في رأسه. ولكنّه لم يأتِ الى البيت، فأين هو؟ أجابني أحد الموظفين بأنَّهم أخذوه الى مركز شرطة الدورة. ذهبتُ الى مركز شرطة الدورة كي أراهُ وكان كلّ رأسه ملفوفاً بضمادات بيضاء مليئة ببقع حمراء، وهو متعبٌ جدّا لا يستطيع فتح عينيه وغير قادر على الكلام. سألتُ لماذا أخي موقوف، إنّه حادث سيارة؟ قالوا لأنَّ السائق الآخر راقدٌ في المستشفى. قلت وهل أستطيع إخراجه بكفالة؟ قالوا كلا، لأنَّ الشخص الآخر مازال في المستشفى، وهذا هو القانون. سألتُ عن الشخص الآخر، قالوا إنّه ضابط في الأمن الاقتصادي (مخابرات)! اتصل أخي رعد بصديقه محمد حسن حبيب الذي يعمل في وزارة الصحة. كان محمد حسن من الشباب المقدامين والجريئين فضلا عن كونه مدعوم سياسيَّاً. ذهب الى مستشفى الكرامة ليستفسر كيف ولماذا أخرجوا عصام من المستشفى وهناك ضربة وجرح عميق في رأسه؟ أخبرنا محمد حسن مساءً بكلِّ ما جرى في المستشفى.

إنَّ الملاك الطبي في مســتشــفى الكرامة خضــع لضــغط من قبل ضابط الأمن الذي لم يلحقه أذى نتيجة الحادث سوى كسر أحد أسنانه الأماميَّة. وأنّهم أصدروا أوراقاً على أنّه أُدخل المستشفى كي يتم توقيف عصام بناءً على ذلك. وأنّه ضغط على طبيب الطوارئ كي يأمر بعدم ضروريَّة بقاء عصــام في المســتشــفى كي يتم توقيفه انتقاماً.

كان قلقي الرئيسيــ هو ماذا لو كان هناك نزيف داخلي في رأس أخي؟ وماذا وماذا لو؟ سيطرت الأفكار السوداء على تفكيري طوال الليل، لذلك اتصلت بخالي الحاج كريم في لندن لأنّه يعرف صديقاً مشتركاً هو قيس، كي نستنجد به لا لشيء وإنما كي أرجع عصام الى المستشفى. اتصل خالي به ومهَّد لاتصالي به. ذهبت إليه في شارع هويدي الثاني وشرحتُ له الموضــوع. قال دعنا نذهب الى مركز شرطـة الـدورة. قيس كـان من الحرس الخـاص المرافق لرئيس الجمهورية آنذاك أحمد حســن البكر. إلّا أنّه بعد حركة ناظم كزار أحيل على التقاعـد. طلب منّي قيس البقاء في الســيارة. ترجّل ومشىـ بطريقة مهيبة تدلُّ على أنّه ضــابط مهم بالرغم من كونه مدنياً وضــابطاً ســابقاً. اســتعدَّ له شرطي المناوبة في باب المركز. دخل قيس يُعربد بصوتٍ عالٍ مستخدماً ألفاظاً مهينة: أين مأمور المركز... أين ضــابط المركز..... وأنا خارج المركز أســمعه يُهينهم ...فعلكم... تركِكم... ويقول لماذا عصام ليس بالمستشفى؟ ولماذا ... والله سوف أفعل كذا وكذا...

خرج قيس من المركز ومعه عصــام. أخذناه مباشرةً الى مســتشــفى الكرامة حيث كان محمد حســـن بالانتظار. أدخله الدكتور ليبقى

تحت المراقبة لثمانٍ وأربعين ســـاعة. تركتُهُ مع محمد حســـن لأوصـل قيس الى بيته متشـكّراً منه مسـاعدتنا، عالماً من أنّه ربما عرّض نفسه لمخاطر شخصيَّة. رجعت في المساء الى المستشفى حيث كان عصـــام غاطاً في نوم عميق في قاووش (ردهة) تحوي ســتة او ثمانية مرضى. قررت البقاء معه حتى الصــباح. ســحبتُ كرسيّاً وجلست جنب رأسه اسمع عمق شخيره المتأتي من هول الصــدمة القاســية. بعد نحو الســابعة او الثامنة مســاءً اطفأت معظم الأنوار كي ينام المرضى حتى الصــباح. كان ليلاً هادئاً ســاكناً موحشــاً ومخيفاً في الوقت نفســـه، تتخلله آهات وأنّات مرضى جميعهم في حالة خطرة وقلقة، وكنت المرافق الوحيد الواعي لما يحدث والمستمع الصاغي بحكم الضرورة للمعزوفات المؤلمة.

بعد مرور عدّة ساعات ودخولنا في عمق الليل، سمعت وقع أقدام لعدة أشـــخاص قادمين باتجاه الردهة. كان لا بدَّ لي أن أفترض أن الطاقم الطبي يقوم بجولة تفقديَّة للمرضى. ولكن حينما فُتحت باب الردهة دخل ثلاثة أشخاص من النوع الذي تستطيع تحديد هويتهم بمنتهى السهولة. إنّهم إما شقاوات (فتوة) شارع أو شرطة أمن بملابس مدنيَّة. وصلوا الى سرير عصام الذي كان يغطُّ في نوم عميق جدّاً. أما أنا فكنتُ مرهقاً جدّاً وشـــبه نائم، إلّا أن طريقة قدومهم وشـكلهم المرعب في خضـم ليل رهيب أرعبني وأيقظني تماماً. سـألني أوسـطهم وأضـخمهم، والشر يتطايرُ من عينيه، من أنت؟ أنا محمد أخو عصـــام. وماذا تفعل هنا؟ أنا مرافقٌ لأخي. ولماذا عصـام في المسـتشـفى؟ لأنَّ الضربة في رأسـه وهناك خوف من نزيف داخلي. سـكون قاتل لعدّة ثوانٍ، تخللته حركات مريبة،

حيث كان ثلاثتهم ينظرون الى بعضهم البعض من دون أن يستديروا برؤوسهم، وإنّما عن طريق تحوير العيون جانبيّاً. ظلّوا واقفين متردّدين لا يعلمون ماذا سيفعلون؟ في النهاية أكثروا من نظراتهم الشريرة باتجاهي على شكل تهديد ملحوظ ومباشر ورحلوا. بقيت مرعوباً خائفاً وكلّ أعضاء بدني ترتجف من هول الموقف الرهيب. ولكنّني حمدتُ الله على بقائي جنبَ أخي، لأنّي متأكدٌ من أن مرادهم كان أما الاعتداء عليه أو إرجاعه الى الموقف في أهون الحالات.

بقيتُ واعياً لاحتمال عودتهم مرّة ثانية، وكلما أشعر بالنعاس أقف وأتجول قليلاً، كي أنشط نفسي- حتى ينقشع الظلام الساكن المخيف. لم يخب ظنّي كثيراً، ولم انتظر طويلا، إذ سمعت وقع أقدام الجستابو الرهيبة مرّة أخرى تقترب تدريجيّاً الى أن فتحوا الباب، فرأوني واقفاً جاهزاً لملاقاتهم هذه المرّة. مازلت هنا؟ نعم أنا باقٍ، ماذا تريدون؟ لم يجبني أين منهم. استرسلتُ بالسؤال رغم ضعف ركبتيّ من الخوف؟ هل أنتم موظفون في المستشفى؟ مرة أخرى تخاطبوا بعيونهم من دون ان يستديروا برؤوسهم. كان لسان حالهم يقول لا نستطيع أن نفعل شيئاً وأخوه لنا بالمرصاد. لم أصدق رحيلهم وكأنّهم كانوا ثلاثتهم بجثثهم الهامدة جالسين على صدري. كل هذا وما زال عصام في غيبوبة عميقة وشخير يكاد يهزُّ نوافذ الردهة. وما إن بزغ الفجر وأصبحت الساعة السابعة صباحاً حتى بدأ الملاك الطبي من ممرضات ومعينين وأطباء بالعمل كلّ حسب اختصاصه. استيقظ عصام فشعرتُ بالأمان أكثر. استأذنته لأنّني يجب أن التحق بالدوام.

ذهبتُ الى الدوام في الجامعة المستنصريَّة وبعد انتهائي توجّهت مباشرة الى مستشفى الكرامة لتفقد أخي. ولكن حينما وصلت لم يكن في سريره. وحينما سألت أخبروني بأنَّ الدكتور قد قرّر أنَّ علاجه انتهى، وكان الشرطي بانتظار ذلك كي يُرجعه الى التوقيف في مركز شرطة الدورة. ولكن الدكتور أوصى بمراقبة حالته لثمانٍ وأربعين ساعة؟ ما الذي حدث؟ صمتٌ وأفواهٌ مكمّمةٌ والجواب معروف. كان لا بدَّ لي من الاستعانة مجدّداً بقيس خاصة بعد أن علمنا من أن الضابط لم ينم ولو لساعة في المستشفى وإنّما التقرير كان لغرض إبقاء عصام في التوقيف. بمساعدة الأخ قيس، استطعنا إخراج عصام من التوقيف بكفالة بعد جهدٍ جهيدٍ وأخذناهُ الى طبيب العائلة الدكتور عبد المجيد حسين في مستشفاه للاطمئنان عليه.

كان هذا الحادث بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لأخي عصام. حيث أنّه خدم في العسكريَّة بعد تخرّجه وكان ذلك اثناء حرب أكتوبر (رمضان) عام 1973. وعلى الرغم من أنّه لم يشترك في الحرب واستطعنا أن نبقيه في معسكر الرشيد، إلّا أن كثرة الإنذارات وحجز الجنود في المعسكرات بحجة الإنذار (ج) الذي كان يستخدم اعتباطيّاً في الكثير من الأحيان قد غيّرت مجرى حياته. النتيجة: قرّرَ عصام أن يهاجر الى السويد لأنَّ أحد اصدقائه قد سبقه الى هناك وكان يُشجعه على السفر. سافر وفي فمه مرارة كان بعضها مفهوماً وقسم كبير منها مازال غير معلوم ليومنا هذا.

جاء موعد المحكمة فذهبت الى مجمع المحاكم في جانب الكرخ في الساعة الثامنة صباحاً بانتظار أن يدعونا القاضي للمثول أمامه. وسبب حضوري لأنّي كفيلُ أخي ولأنَّ عصام قد هاجر الى السويد مع نيَّة عدم الرجوع. وأثناء انتظارنا كان ضابط الأمن الذي تصادم مع عصـام يُحدّق بيّ بطريقة من يريد أن يخلق سـبباً للخصـام. حاولتُ تجنّبه قدر الإمكان. شاغلت نفسي بالتحدث مع الشرطي الذي يحمل معه ملف القضـية والقادم من مركز شرطة الدورة. لاحظتُ أنّ الشرطي كان في منتهى الأناقة في الوجه والملابس وأنّه يحمل رتبة عريف رغم صـغر سـنِّهِ. تحدثت معه وقال لي إنّه قد تخرّج للتوِّ من دورة للإنتربول من فرنسـا. وأنـا أتحـدث معـه لاحظت أن الملف يحمل عنوان "حادثة دهس"، فقلتُ له إنّه حادث صِدام سيارتين وليس حادثَ دهس. أجاب إنّه لا معرفة له بالقضـية، وإنّ واجبه يقتصر على تسـليم الملف للقاضي حين الطلب. أدركتُ أنّ الموضوع به الكثير من التلفيق وتغيير الحقائق مما أثار حفيظتي (علمنا بعد ذلك أن غريمنا لم يكن حاصـلاً على إجازة سـوق وبذلك لا يحق له أن يسـوق، وفي حال وقوع صِـدام فإنَّه سـيكون المذنب في جميع الحالات). بلغت السـاعة الثانية عشرة ظهراً وإذا بنادل المحكمة يخرج إلينا ليقول إنّ الدوام انتهى وتؤجّل بقية القضـايا. حينها جاء الخصـم وقال لي أين عصـام؟ جاوبته بازدراء سـخيف لم يكنْ في محلّه بأنَّ: "عصـام سـافر للسويد كي يدعيلك هناك!" (ما معناه يدعو لك عند الأئمة).

قال لي انت محمد حسـين؟ قلت نعم. قال لي: "اسـمع! آني ما اعترف لا بالمحكمة ولا بالقاضي ولا بالقانون! إحنا عشـائر وآني آخذ حقي منكم عن طريق عشيرتي".

لم أُعِرْ للموضـــوع اهتماما كافياً لأنّنا نعيش في عام ١٩٧٧ ضــمن دولة مدنيَّة علمانيَّة ليس من المفروض أن تقبل أن تشـــاركها العشــائر أو المرجعيات الدينيَّة بالســلطة. وكلّ ظنّي أن ســلطات العشائر ونفوذها قد اضمحلت أو ضعفت بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨. وكان عجبي أن ضـــابط أمن يقول إنّه لا يعترف بالشرــطة والقضـاء والقانون! المهم مرّت أيّام من دون اكتراث للموضـوع الى أن طلب منّي "أبو عمار" وهو جار لنا في ســوق الشــورجة وأيضــاً جارنا في السكن في الكرَّادة الشرقيَّة. دعاني أن أزوره في البيت مساءً بعد العشـاء كي نشرـب الشـاي معاً، وان هناك موضـوعاً مهماً يريد أن يحدثني به. ذهبت اليه ومن البداية قال لي قبل أن نشرــب الشــاي ويضـيع الموضــوع: دعني أحدثك عن موضــوع عصــام! استغربتُ لمعرفته بالموضوع، وقال أنا أعرف ضابط الأمن جيداً والتقيت به وهو يعرف الكثير عنك، فمن الأفضـــل أن نرضـــخ لمطالبته بحلٍّ عشائريٍّ. مرّة أخرى استهنتُ بالموضوع ورفضت الرجوع عشرـات الســنين الى الوراء كي نحلَّ خصـام حادث صِـدام ســيارتين عشــائريَّاً. هنا اســتوقفني أبو عمار بحدّة وقال لي: اســمع أبو جاســم (وهي كُنية كلّ من اســمه محمد) إنّه مُطلع بالتمام على ملفك (إضبارتك) الدسم في الأمن وأنّه ذكر لي أنَّ لك أختين عالية وأنوار طالبات في الجامعة المســتنصرـيَّة! هنا أصــابتني حالة من الشـــعور بالعجز والضـــعف والخوف من أن يتمَّ أيّ شيء يمسُّ خواتي أو يلحق بهن الأذى بأيِّ شـــكل من الأشـــكال. رضـــختُ للحلول التي يقترحها أبو عمار الذي كان مخلصــاً جدّاً في موضــوع التوسّط لصالحنا.

أخذني أبو عمار معه الى مدينة الضــباط في اليرموك وزرنا عدّة ضباط عسكريين واستشرناهم كيف نتصرّف؟ كان رأيهم صادماً لي لأنَّ الكلَّ اقترح لا بدَّ من الموافقة على الحل العشــائري. بعد ذلك قررت الذهاب الى لقاء رئيس العشـيرة، فذهبت الى المدرسـة التي كان يُدرّس بها عصــام والتقيت بمدير المدرســة الذي رحّب بي بحفاوةٍ وأنّه يحب أســتاذ عصــام كثيراً. حكيتُ له الموضــوع فتأسّــف كثيراً وقال لا عليك سـأدلك على رئيس العشـيرة اذهب إليه وقابله وبلغه سـلامي، إنّه إنســان طيب وســوف يســاعدك. ذهبت حسـب الوصـف وكان الفصـل ربيعاً وأشـجار النخيل على مدى البصرــ، وتحت ظلالها على جانبي الطريق اشــجار الفاكهة، مقدحة بأزهار ثمار الخوخ والأجاص والبرتقال والليمون والرائحة زكية جدّاً والريـح الآتية من ضــفاف دجلة الخير تحمل نســماتٍ باردةً ومعطرةً لا يمكن نســيانُها. وقفت على الســد أمام البســتان ونزلت لأرى فلاحاً بسـيطاً بيده المسـحاة، واضعاً ذيل دشـداشـته (ثوبه) في حزامه، يحاول تعديل وترميم الســواقي بين أشــجار الليمون والبرتقال. بعد السـلام عليه أخبرته بأني أريد الوصـول الى الشـيخ فلان. اسـتغربت كثيراً حينما قال: وصـلت، آمر؟ أجبته لا يأمر عليك ظالم شيخنا، وقلت: شيخنا الموضوع كذا وكذا ونحن عائلة مدنيّة مســالمة ولســنا من العشــائر، ولســنا مؤهلين لدفع فدية أو ديَّة عشــائريّاً. أجابني الشــيخ الموقر بكل تواضــع وخجل وقال لي: هل فعلاً يستحق موضوع كهذا جلسة عشائريَّة؟ وأضاف "والله أكوا ناس دينزلون قيمة العشــاير والمشــايخ ويشــوّهون سـمعتنا، ولكن مع ذلك يا أسـتاذ بما أنّه طلب منك ذلك، لا بدَّ لنا من الجلسـة واترك الباقي عليَّ...". شكرتُهُ جدّاً جدّاً ومنحني الثقة بأنّنا سـنكون في أيدٍ أمينة. وأضاف ما رأيك في اليوم الفلاني أن تأتي

مع مجموعـة من كبـار القوم من عـائلتكم ونجتمع في بيت والـد الخصم في شارع فلسطين. شكرتُهُ وأنا واثق من أنّنا سنكون في أيدٍ أمينة.

فعلاً جهّزنا ثلاث سـيارات من التجار والحجاج والخوال وأبوعمار وذهبنا. اســتقبلنا الشــيخ ووالد الغريم ووالدته التي كانت ذات شـخصـيّة تدلّ على علو مكانتها ورفعة أخلاقها. أما صـاحبنا فكان غائباً ولا أدري إن كان ذلك مقصــوداً أم لا؟ بدأ الحديث نيابة عنا أبو نضــال وقـال إنّنا نعتذر عن الأذى الذي لحق بأخينا وأنّنا مســتعدون لتحمّل جميع مصــاريف العلاج الطبي ومصــاريف تصليح السيارة وما ترونه مناسباً، أسنده خالي الحاج مهدي بكلام مليء بالحكمة والورع. أجابنا والد غريمنا بحضــور الشــيخ بأنَّ مجيئكم هو خير تقدير وشرف لنا وهذا يكفي ولا غرامة أو فدية مطلوبـة. كـان لقـاءً بمنتهى الاحترام من دون توبيخ أو تهـديـد أو ابتزاز، وتحوّلت الجلسة من جلسة فصل الى جلست صُلح بفضل حكمة الشــيخ ووالدي الغريم. مع ذلك طلبتُ من أبو عمار أن يتحدث مع غريمنا ويصرُّ عليه أن ندفع مصـاريف الطبابة لكسر أحد أسـنانه وتصـليح السـيارة وكانت جميعها بحدود ٣٠٠ دينار، دفعناها بكلِّ ممنونيَّة. بعد ذلك دعانا أبو عمار لجلســة صــلح في مطعم شـــاطئ الجنـدول على أبي نواس على شراب وســمـك مسقوف، وكانت جلسة جميلة على أنغام صوت كوكب الشرق أم كلثوم. وهكذا تســير الأمور على ما يرام بعد العناء والقلق وقلة المنام.

حدثتْ هذه القصّـة عام 1977 كما ذكرتُ سـابقاً يوم كانت هناك حكومة مركزيَّة بمنتهى القدرة على التحكّم وبقسوة على مجريات الأمور. ومع ذلـك فـإنَّ ذلـك لم يمنع أو يردع غريمنا هنا من أن يسـتغني عن السـلطة ويفضّـل أن يأخذ حقّه عن طريق العشـيرة. وللعلم فإنَّ "صـدام" وخاصـة بعد عام 1979 روَّج وشـجَّع لبعث النزعة العشـــائريَّة وترويجها كبديل او مكمّل لحزب البعث الذي تحوَّل بعد ذلك من حزبٍ موالٍ لأفكاره مهما كانت إلى حزبٍ تابعٍ لشـــخص صـــدام. وتحوّل دور الشـــيوخ بدلا من حماية أبناء عشـــيرتهم الى أمراء يعلنون البيعة والنصرـــة للقائد الضرـــورة، ويجنّدون شـــبابهم لحروب لا طائل لها. أما بعد عام 2003 وبالغياب الكلي لسـلطة الدولة فقد تحوّلت العشـيرة الى دولة داخل الدولة. والحق يُقال فإنَّ الشـــيوخ والوجهاء لعبوا دوراً ايجابيَّاً في بداية الأمر لحماية أبنائهم، ولكن تحوّل ذلك تدريجيَّاً من الحماية الى الجباية بمرور الزمن وانتشـــار الفســاد وضـعف الأمن والأمان واســتمرار غياب الدولة والإهمال الكلي لحماية المواطن المسـالم الذي لا حول ولا قوة له. أتمنى أن يكون جميع شيوخ العشائر والوجهاء من النوع والعزة والشرف للشيوخ الذين سـاقتني الأحداث للتشرّـف بمعرفتهم، والذين ترسّـخت ذكراهم الطيبة في ذاكرتي، لأنّي متـأكـدٌ من أنّهم لم يقـدموا الاحترام لنا فقط، وإنّما وبّخوا غريمنا لتهوره ولزجّه العشـيرة في مسـألة ذات طابع مدني ولها حلول قانونيَّة بسيطة ومنصفة للطرفين.

التحرُّشُ الجنسي في المواصلات

منذ أن فطنت للحياة كانت هناك أزمة مواصــلات وزحمة في الطرق والســاحات المدورة التي اشــتهرت بها بغداد مثل ســاحة التحرير وســاحة الطيران في الســتينات والســبعينات من القرن الماضي. والزحمة والتدافع ليس بين الســيارات فقط، إنّما بين الركاب ســواء في باصــات الأمانة او تكسي- النفرات (التكسي- المشترك). وطبعا هناك تداعيات لهذه الاختناقات في المواصلات نتيجة للتلاصق الجسدي الذي لا مفر منه سواء إن كنت واقفا أو جالســاً. من بينها أن معظم حالات النشـل (السرـقة من الجيب) تحدث في باصــات الأمانة المزدحمة. كذلك فإن الازدحام يوفر فرصــة ذهبيَّة للتحرُّش الجنسي- الذي كان ســائدا في تلك الأيام. وقـد يعتقـد البعض أن التحرّش الجنسي- كـان من تصرّــفـات المراهقين فقط. كلا، وانما كان ســمة ســائدة خاصــة من قبل الرجال في أعمار متقدمة. كان التحرّش الجنسي- يتم بشـكل شـبه علني من دون خوف او خجل ومن دون أي تدخل من قبل الآخرين لإيقـافـه. وللأســف نـادراً مـا نرى فتـاة او امرأة تتجرأ أمـام الملأ وتفضح المتحرّش.

ومن بين إحدى ذكرياتي التي من الصـعب نسـيانها أنني في صــباح أحد الأيام حينما وصلت الى محطة تكسي- النفرات كان قد سبقني ثلاثة أشخاص من محلتنا في السبع قصور الكرَّادة الشرقيَّة داخل. أحد هؤلاء الأشخاص سيدة حامل في مرحلة متقدمة لا تستطيع معها التحرّك بالسرــعة التي تقتضــيها الحصــول على مقعد في

التكسي. وبما أنّه لا توجد ثقافة او نظام أن الأفضليَّة للأسبق، فإنّه حينما يقف التكسي يركض الجميع كالغزلان، ومن هو أسرع يحصل على المقعد. والباقون ينتظرون التكسي القادم، والقادم والذي بعده، وهذا ما حدث للسيدة التي ظلت تلاحق التكسي وهي تسير كطائر البطريق عدة مرات من دون نجاح. ظللت مندهشاً كيف أن رجال محلتنا كانوا يأتون بعد جارتهم السيدة الحامل ويسارعون لسرقة دورها منها من دون تردد او حياء او خجل او مروءة او حتى رجولة. حينها بدأت أفكر ان المشكلة لم تعد في السلطة السياسيَّة فقط، وانما في أخلاقيَّة الشعب أيضا الذي تغيّر عبر الزمن نحو الأسوأ.

وليس كل ما يحدث في المواصلات العامة سيء اجتماعيَّاً. حيث كان باص الأمانة ملتقى الشباب بعد دوام المدارس. فمرحلة الثانويَّة كانت فترة العلاقات العذريَّة التي تقتصر في معظم الأحيان على تبادل الابتسامات والرسائل وبعض الكلمات التي تخلع القلب من الصدر من شدة خفقانه. كان انتهاء الدوام وقت اللقاء وباص الأمانة مكانه الآمن. وكان لنا في باص الأمانة ذكريات.

حكاياتُ حبٍّ بغداديَّة

الشُرفة

جعلت أم علي من "الحِفافةِ" مهنة لها، حيث تؤدي واجبها في البيوت المستورة التي لا تحب الذهاب إلى صالونات الحلاقة النسائيَّة. أخذت أم علي، على عاتقها العمل للمساعدة على تربية أطفالها الثلاث، والاعتناء بزوجها الذي أصبحت همومه وإخفاقاته مسيرة لحياته. أم علي "كثيرة الصنائع وبختها ضائع"، لأنَّ زوجها الذي يعمل في سوق بيع الخضار بالجملة، يعمل يومًا ويجلس في البيت عشرة أيام. مشكلته الإدمان على المشروب، الذي يُذكّره بالآمال الكبيرة التي ضاعت، لتحل محلها انكسارات لم يستطع التغلّب عليها، ليغرق في متاهات لماذا وماذا لو.

كانت أم علي، تزور جارتها أم نزار بمناسبة وغير مناسبة، تحكي لها همومها وعمّا يدور في الحارة من قصص غراميَّة ومشكلات زوجيَّة، ومن تخاصم مع من، ومن الذي يحب الزعيم (عبد الكريم قاسم) ومن هو ضد الزعيم "ومنو الراح ومنو الإجة". أما نزار فكان يُحضّر لامتحانات البكالوريا للصف الثالث المتوسط، للعام الدراسي 1961/ 1962، وأفضل مكان يجلس فيه هو الشرفة الأرضية المجاورة لغرفة الجلوس، والمُطلّة على الحديقة الأماميَّة. كان نزار يستمع بشكل غير مباشر ومن دون قصد، لحديث أم علي مع والدته. وكان ينبهر من فطنة أم علي السياسيَّة، حينما يسمعها تعلّق على ما يقوله المذيع في أخبار التلفزيون. وكان يرى في تعليقاتها حِسَّاً وذكاءً وحنكةً سياسيَّةً لا تتناسب مع ثقافتها أو مهنتها. وأحيانا يقول في نفسه، يبدو أن أم

علي تنتمي لحزبٍ او حركة سياسيَّة! وفي أحد الأيام سألت أم نزار، أم علي قائلةً: "أكول انتِ شلون عايشه ويه زوجكِ السكير؟" "لا يا أم نزار على بختچ"، أجابتها أم علي، "موحقه هيچي يصير، چان فورمن بالســكك يُگَرك وفصــلوه، لأنّه نقابي ويدافع عن حقوق العمال". "معقوله شــلون يقبل الزعيم"، أجابتها أم نزار. "ليش الزعيم يـدري شـــديصـــير بـالولايـه، الله مبـدالچ، ديفصـــلون المخلصين ويصعدون الخونة وهو نايم، الله اليستر".

تحدثت أم علي خلال إحدى هذه الجلســات عن "ليلى الحلوة"، وهكذا كانت تَسـميتها في المحلة، لأنّها فعلا فتاة جميلة، ورشـيقة وذات شعر ذهبي مكعكل طويل وعيون عسليَّة واسعة مثل عيون الغزلان. بيت ليلى يقابل بيت نزار من الجهة الأخرى من الشـارع، بيـت كبير يتكوّن من طـابقين، وفي الطـابق الثـاني شرفـة مزيّنـة بســندانات ورود جميلة ومتنوعة بألوانها وأشــكالها. وكانت هذه الشُرـفة مُطلّة على الشـارع وتشرـف على الشرـفة التي يدرس فيها نزار. تُطلُّ ليلى من شرفتها المسـلّطة على الطارمة التي يدرس فيها نزار مرة أو مرتين في الأقل يوميّاً. ونزار شـــاب وقور وخجول، لذا كان يُبعد نظره عنها خجلاً حينما يلاحظ وجودها، كي لا تُحرج منه، ولأنّه يعلم أنّها نـافذتها الوحيدة للعالم الخارجي، ولتبقى واقفة هناك تُمتع نظرها في تحركات البشر. والسيارات وما يدور في الشارع من رواح ومجيء.

ولكن في أحـد الأيـام حـدث مـا لم يكن متوقعـاً. أطلّت ليلى وكان وجه نزار باتجاه ســندانات شرفتها وكأنّه يحاول أن يشـــتم رحيق

الورد عن بعد، وقبل أن يدير رأســـه عنها كعادته، منحته ليلى ابتســـامة خجولة ودعوة إيحائيَّة بما معناه، ألّا تدر بوجهك عنّي، لأنّني هنا كي أراك وكي تراني. انســـحبت ليلى إلى مخدعها بسرـعة فـائقـة. ارتبـك نزار من الموقف غير المتوقع، خفقـان في القلـب واهتزاز في القدمين وشعور بمن لا يصدق ما يحدث. بقيّ نزار يفكّر بما حدث؟ هل كان ذلك حقيقة أم خيالا؟ ســؤال ظل من دون إجابة لحين الإطلالة الثانية التي كان نزار يترقّبها بفارغ الصبر. وإذا بها ليلى بلحمها وشـــحمها وشـــعرها الطويل المتناثر في الهواء، وبلمعان عذب في عيونها لم يســـبق له أن رآه من قبل. ولم تمضِ سوى لحظات حتى رفعت يدها اليمنى لتهزّها عدّة مرات كي تُسلّم من بعيـد ولكي تـذهلـه من جـديـد. ولم يعرف نزار كيف يجيب، ســوى رفع اليد بالإجابة من دون ابتســامة لأنّه كان مرتبكا، لا بل مرتبكٌ جدّاً، ولا يدري هل أنّها تســـخر منه؟ هل تغازله؟ هل تصـــادقه؟ أم أنّها تســـلّم على ابن الجيران لا أكثر ولا أقل؟ كل الاحتمالات ممكنة، لكنّه كان راضياً بأيٍّ منها.

اســتمرّت التحيات والابتســامات عبر الأثير، وكانت حافزاً يوميّاً كي يُهيّئ نزار نفســه كل يوم ليشرـب شـاي الصـباح ويتناول الغذاء في طارمة الخير والســعادة، طارمة الحب والغرام، الطارمة الموعودة التي تطلُّ منهـا المحبوبـة. كـانـت أغـاني عبـد الحليم حـافظ هي الشـائعة في ذلك الزمان خاصـة أغاني فيلم "حكاية حب" مع مريم فخر الدين الذي عُرض في صـــالات الســـينما مؤخراً. كان معظم شـباب سـتينات القرن الماضي معجبين بأغاني عبد الحليم، لذلك كان معظمهم يحملون راديو ترانزســـتور صـــغير، مثلما يلازمهم الهاتف المحمول هذه الأيام، كي يســـتمعوا إلى الأغاني العاطفيَّة.

يتضمن فيلم حكاية حب، قصة حب صعبة المنال بين فتى فقير وفتاة من عائلة باشـوات، ويحتوي على أجمل ما غنّى عبد الحليم مثل أغنية "بتلوموني ليه" وأغنية "حبك نار" وأغنية "بحلم بيك". وإذا صادف حينما تطلُّ المحبوبة من شرفتها أن يكون عبد الحليم مُغرّداً، يرفع نزار صـوت المذياع كي تسـتمع اليه ليلى وتطرب معه ولو من بعيد، وربما كان ذلك الوسـيلة الوحيدة للحديث بينهما. وحينما تراه يرفع الصـوت تنفرج أسـارير وجهها بابتسـامة ناعمة وخجولة مع وضـوح بالاسـتمتاع بها وكأنَّ نزار يناجيها.

وفي يوم من الأيام سـمع نزار صـوت عبد الحليم يأتي من بعيد في أغنيته الدرامية "حُبك نار"، من الجانب الآخر من الشـارع. بدأ الصـوت يقترب أكثر والمصـدر أضـحى أكثر وضـوحًا، وإذا به من راديو ترانزسـتور صـغير محمول بيد ليلى، وهي خارجة به من غرفتها الى الشرفة المزدانة بالزهور، وصـوت الراديو بدأ يرتفع كي يسـمعه العاشـق الولهان في الطرف الآخر من منزلها. قرر نزار أن يجيبها بالبحث عن الأغنية نفسـها. لم تكن المحطات كثيرة في ذلك الوقت، لذلك عثر عليها بسرعة فائقة، ثم رفع يده التي تحمل الراديو للإجابة على التحية التي أشـعلت النار في قلبيهما. وبذلك أصـبحت هذه عادة مسـتمرة بينهما. وكان المارة من الجيران يسـمعون الأغنية نفسـها من على جانبي الشـارع، وربما شـك البعض من ان مصـادفة سـماع الاغاني نفسـها أضـحى كثير التكرار!

ومرت الأيام الجميلة بسرعة فائقة، وانتهت امتحانات البكالوريا، وكان من عادة نزار العمل مع والده الذي يملك مكتبة لبيع الكتب في شارع السعدون في العطلة الصيفيَّة. نزار يحب العمل في مكتبة والده لأنّه شغوف بقراءة الكتب السياسيَّة والقصص الواقعيَّة. كان يقرأ كثيراً قصص نجيب محفوظ وكتابات سلامة موسى. إلّا أنه لاحظ من اليوم الأول أن بعض الرفوف فارغة من الكتب. سأل والده عن السبب، وكان الجواب إن وزارة الإرشاد والأمن السياسي أبلغونا بعدم نشر وبيع الكتب الهدامة (يساريَّة التوجه)، لذلك سحبناها من الرفوف وحاليَّاً أخفيناها في غرفة الخزن الخلفيَّة، نبيعها للزبائن الذين نعرفهم فقط. أسرع نزار إلى المخزن واختار بعض الكتب كي يأخذها معه إلى البيت.

مضت عدة أسابيع على هذا المنوال، وفي مساء أحد أيام الخميس، سمع الجميع هلاهل (زغاريد) تأتي من جهة بيت الحلوة. وكانت هناك سيارتان او ثلاث واقفة أمام دارهم. لم تدم الشكوك لمعرفة ما جرى سوى يوم واحد، حيث جاءت أم علي إلى دار أم نزار كعادتها بعد ظهر يوم الجمعة كي تزف البشرى، وبدأت كلامها بتساؤل عمّا إذا سمع الجميع من ان ليلى قد تمت خطبتها من أحد أقاربها البارحة. سألتها أم نزار ما إذا كان هذا الخطيب حبيباً؟ أجابتها أم علي: كلا، ولكنّي أعتقد أنها تحب شخصاً آخر، لأنّها كانت سعيدة جدّاً هذه الأيام وتستمع للأغاني العاطفيَّة كثيراً. وغمزت لنزار بعينها لتُعلمه من أنّها على معرفة بقصّتهم. الفضول دفع أم نزار لسؤال ثاني: إذا كانت ليلى تحب شخصاً آخر، فلماذا قبلت الزواج من قريبها؟ أجابتها أم علي بحنكة فائقة: إنَّ حُبَّ الشباب، مشاعر جميلة إلا أنّها لا تُكوّن

بيتاً، فالحب شيء والزواج شيء آخر. حينها تملّك نزار شعور غريب يصعب فهمه ويتعسّر تفسيره، لأنّه شعور مُشوّش ومتناقض وغير واضح وغير متكامل. وأخذت الأفكار تسبح في مخيلته: طبعاً إذا تقدم لها عريس سوف تتزوّج، ولكن ماذا عن "حبّك نار"! إنّها نارٌ سوف يطفئها الزواج يا صاحبي، لأنّها لم تكن ناراً، وإنما شعلة ضياء آتية من قنديلٍ رومانسي يبهر حياتنا بمشاعر نبيلة يخفق لها القلب من دون أن يأسره.

تغيّر الموقف كليّاً. لم يعد الثنائي يستمع للأغاني معاً، لم يعد هناك من لزوم لافتعال التواجد في محطات التلاقي. ولكن حينما تلتقي عيناهما من بعيد مصادفة، لم يألُ أيٌّ منهما جهداً لتجنبها، لا بل يتم تبادل التحيات ولو بشكل آخر، تحية جار لجار، كلها ود واحترام. كان ذهاب نزار للعمل مع والده يساعده كثيراً على تفادي اللقاءات المؤلمة. وبدأ يسهر مع الأصدقاء في المساء كي لا يرجع إلى البيت إلا والظلام قد أسكن المحلة في بيوتها. وقبل نهاية ذلك الصيف وفي مساء يوم آخر من أيام الخميس، جاءت الزفة لتأخذ العروس إلى عشِّ الزوجيَّة الجديد، لتتحول ليلى من طفلة بريئة إلى امرأة ناضجة، ولتصبح ربّة بيت، ولتنجب البنات والبنين، وربما تتذكر بين الحين والحين، عند سماع أغنية ذات رنين، فيها خصوصية ذات معنى وحنين، مشاعر حب عذري سيظلُّ مطويّاً عبر السنين.

وفي يوم خريفي من أحد أيام الجمع الذي عادة يزور فيها الأبناء أهلهم، كان نزار في باب الدار يراقب الرياح العاتية والسماء

المكفهرة وتبعثر أوراق أشـجار النارنج والبرتقال الصـفراء، مترقّباً لاحتمالات هطول مطر غزير في ذلك اليوم الهائج، لمح قدوم امرأة ميّز طلّتها من بعيد ومعها رجل لم يرَهُ من قبل، حدسَ أنَّه غريمه وزوجها، قاصـدين بيت أهلها الذي يقابل بيتهم. حار نزار في أمره، وارتبك في موقفه، وأخذ يسـأل نفسـه ما المفروض أن يفعله؟ هل يدخل البيت ويتجنّب رؤيتهما؟ لم يسـتطع فعل ذلك ولن يقوى عليه لأنّه يريد رؤيتها ولو لآخر مرة. ظل واقفاً متسمّراً في مكانه، وجسمه يرتعش بكامله. كانت خطواتهم بطيئة جدّاً، أحسَّ أنّها لاحظته، ووجهت رأسها باتجاهه، وحينما اقتربوا من بيت نزار تباطأت الحلوة في خطواتها كي تتخلّف بعض الشيء عن زوجها عمداً، لتفرش عباءتها على مصراعيها كأنّها فراشة ربيعيَّة، ولترفع يدها إلى جبينها، وتمنح نزار تحيَّة بيد مرتجفة، وبنظرات حائرة، وابتسامة مرتبكة، لا معنى لها سوى أنّها ما زالت تتذكر تلك اللحظات العذبة، وأنّها سعيدة جداً بهذا اللقاء الخاطف، الذي كان في الوقت نفسه لقاءً ووداع.

حُبٌّ بلا عِناق

قصّـــة حبّ حزينة ومؤلمة جداً ما زالت عالقة في مخيلتي منذ أيام طفولتي. إنّها قصّة جميل الذي أحبّ ابنة خالته جميلة. كانوا في مقتبل العمر، وكان جميل ما يزال في طور شـــق طريقه وبناء مســتقبله، كي يُؤهّل نفســه للزواج. ولما كانت الحياة الاجتماعيَّة في خمسينات القرن الماضي، مبنيّة على الزواج المبكر، قرر جميل أن يســتعجل ويتقدم لخطبة ابنة خالته قبل أن يتقدم لها الآخرون، خاصـة وان جميلة كانت اسـماً على مُسـمّى، ومن عائلة محترمة جدّاً وذووها من تجار بغداد المعروفين. كانت عائلة جميلة، عائلة تقليديَّة تعتمد في قراراتها على حكمة الأخ الأكبر لهذه العائلة، الذي ارتأى أن جميل لا يصـلح ان يكون زوجاً لأخته الوحيدة. فرفض طلبه وإن كان من أقربائه. كان قرار الأخ الأكبر يعتمد على بعض المُســبّبات الوجيهة كالتكافؤ المالي والتحصــيل العلمي والمركز الاجتماعي، وربما وجود بعض المشـــاكســـات والخلافات التي تعاني منها كل العوائل. إلّا أن ذلك لا يمنع أن يُقابل ذلك توفر مُســبّبات أخرى تدعو للقبول، منها أنه يحبّها وهي تحبّه، وأنّه شاب مستقيم، ومجتهد في عمله، وربما سيكون له مستقبل تفتخر به العائلة. المهم ظلَّ هذا الموضوع مُعلّقاً.

كانت عائلة جميلة وعائلتنا متقاربتين جدّاً، إذ كان أخوها الكبير على علاقة تجاريَّة مع والدي تطوّرت الى علاقة صـداقة عائليّة في

بداية حياته التجاريَّة في بغداد. كانت جميلة تزور والدتي كثيراً، لأنَّ بيت والدتي كان مضـيفاً مفتوحاً للأقارب والجيران، وخاصـة النساء اللواتي يتعرّضن للتعسف والظلم الاجتماعيين. كان حديث جميلة مع أمي عن جميل ومظلوميتها وحيرتها، بين احترام قرار أخيها الأكبر وبين نداء الحب المتسلّط على مشاعرها. كنت أرى وجه جميلة يفقد بشـاشـته ونوره وآخذاً في الذبول تدريجياً. جميل شاب محترم لا يستطيع ان يتخطى الخطوط الحمراء التي أرسى أسـسـها المجتمع والتقاليد والعرف والدين. ومن ثمَّ ظلَّ الموضـوع قيد الحفظ، وكلّما يُثار بين فترة وأخرى، يُسـدل عليه الستار بسرعة.

مرّت الأيام وإذا بالأخ الأكبر يتعرّض لمرضٍ عصيٍّ أدى في نهاية الأمر الى وفاته وهو في عزّ شـبابه. كانت مأسـاة عائليَّة ومصـاب جلل، لأنّه كان الشخصية التي ترتكز عليها هذه العائلة الكبيرة من حيث الإدارة التربويَّة والمسـؤوليَّة الماليَّة. جميل لم ينسَ حبَّه الأبدي، جدّد محاولته لخطبة جميلة من بقية الإخوة وبعد مضي وقت مناسـب. كان الجواب هذه المرة: لقد قرر المرحوم، ولا نسـتطيع كسر قراره ورغبته بعد وفاته. كنت اسـتمع الى هذه الأحاديث بين جميلة وأمي، وكنت أرى شـحوب وجه جميلة وهي تتحدث عن ذلك، وأرى أمي كيف تتأسى عليها وتُطيب خاطرها من دون ان توجهها لقرار معين. كانت تشـاركها حزنها، وتعطف على مأسـاتها وعلى حرمانها من حقها في الاختيار من دون أن تشجعها على الخروج عن طاعة عائلتها.

كان جميل الذي يعمل في سوق الشورجة مثلنا، شخصية محبوبة جدّاً، نظيف في سـلوكه وهندامه. المرح والبشـاشـة في وجهه من طباعه الفطريَّة، إلّا أنّها لم تسـتطع ان تخفي تلك الغصـة الأبديَّة في قلبه، والأسى من حرمانه لتكون حبيبته شريكة حياته. وأنا في عمر المراهقة كنت أتحســـس مأســـاة جميل وجميلة اللذين يكبرانني بحدود العشرـة أعوام. كنت حينما أرى أيَّاً منهما اسـتذكر القصـة برمتها، وكأنّها قصـة قيس وليلى او قصـة روميو وجوليت. حاول جميل مرات ومرات أن يخطبها من إخوتها أبناء خالته، إلا أنّهم كانوا دائماً يردّون عليه بالجواب نفســـه من دون زيادة او نقصـــان، من أنّهم لا يســـتطيعون أن يكسرـــوا قرار المرحوم. لم يسـتطيعوا كسر قرار مضى عليه زمن، إلّا أنّهم كسرـوا قلبين طيلة العمر كله.

ومرت على هذه القصة سنين طوال. ورغم أني فارقتهم منذ أربعين عاماً، إلّا انّني ما زلت أتذكرهم كلما سـمعت قصّـة حبّ مؤلمة. لا أدري ما حلَّ بهما، هل تزوّجا، أم انتهى حبّهما كما بدأ عذريّاً. وخوفي أنّهما فارقا الحياة من دون أن يجمعهما ســـقف واحد أو يذوقا طعم العناق.

سوق الشورجة

مولود الجايجي

لم يكنْ مولود الجايجي رئيساً لغرفة تجارة بغداد، ولا من كبار تجارها. لم يكنْ أبو عدنان من أغنياء بغداد ولا من أعيانها. ولم يكن أبو عدنان من الحسب او النسب الذي يحمل الألقاب التي تؤهّله للتأفّف عن عامة الناس. كان عمّي مولود الجايجي (وهكذا كنتُ اسميه حينما كنتُ صغيراً في العمر) مشهوراً كأفضل جايجي في سوق الشورجة منطقة تجارة الفرفوريات والأواني المنزليَّة. يعمل بجدية وحماس من خلال بسطة چايخانة غير نظاميَّة على حائط في مقدمة الدربونة (زقاق ضيق) يؤدي في نهايته الى جامع قديم، وهو جامع حسين بن روح (وهو من السفراء الأربعة للإمام المهدي المنتظر في معتقد الشيعة الاثني عشريَّة، وهو أحد الأولياء الصالحين الذين من المعتقد أنهم سينهضون عند ظهور صاحب الزمان لمؤازرته).

كان أبو عدنان يعرف أذواق زبائنه، منهم من يحب الشاي سنكين (طوخ) ومنهم من يحبه وسط. منهم من يحب أن يشربه دشلمه (استخدام القند) ومنهم من يحبه سكر قليل. يعرف أذواقهم واحداً واحداً؛ لذا لا داعي أن توصيه كلَّ مرة. كان يستخدم ثلاثة قواري يُداور الشاي بينهما من واحد لآخر كي يخرج بتركيبته النهائيَّة. وإذا لم يكنْ لديه شاي مخدّر (مهدّر) جديد يطلب من الزبون الانتظار. لم يستخدم صينيَّة لحمل عدة إستكانات من الشاي، وإنما كان يجمعها فوق بعضها البعض ليحمل في كلتا يديه ما لا يقل عن ثمانية إستكانات إذا تطلب الأمر.

أناديه عمي ويناديني عمي، وهي حالة نادرة متوارثة في التراث العراقي. إذ ينادي ابن الأخ عمّه بكلمة "عمي" وينادي العم ابن اخيه "عمي". وهذا ينطبق على العمة والخال والخالة. أناديه عمي لأنّه من عمر والدي، وأنا من عمر ابنه عدنان؛ لذا يناديني عمي محمد حسين. أهم ما كان يميّز العلاقات الإنسانيَّة في سوق الشورجة هو الاحترام والتقدير الواضح بين الكبير والصغير، بين التاجر والحمَّال، بين الغني والفقير، بين الأسطة والصانع. الكل ينادي البعض بأبو فلان سواء باسم الابن الأكبر أو البنت البكر. وبالنسبة لغير المتزوّجين هناك كُنية متعارف عليها. فمثلاً كُلّ علي "أبو حسين"، وكُلّ حسن "أبو فلاح"، وكُلّ فاضل "أبو العباس"، وكل عبد "أبو النجوم" ... إلخ. أما أنا ولأنَّ اسمي مركّب "محمد حسين" فكان معظمهم يناديني "أبو جاسم" والبعض يناديني "أبو علي".

كانت علاقتنا مع موظفينا وعمالنا علاقات صداقة وحب واحترام. ولا أدري إن كان ذلك في كلِّ الأزمان أم لأنَّ تلك الفترة كانت ما بعد ثورة 14 تموز 1958، التي خفّفت كثيراً من مظاهر التباين الطبقي والتأفّف البرجوازي تجاه الناس الأقل ثقافة أو منصــباً؛ لذلك كان أبو عدنان من المحترمين في مجتمع التجار، وخاصــة من قبل أبي والتجار الذين أعرفهم في محيطنا. تراهُ في الصــورة الأولى واقفا جنبنا بمنتهى الثقة والشــموخ. وفي الصــورة الثانية مع ســعيد وخاله جبر وهم من مستخدمي جارنا ومنافسنا التاجر جابر مهدي البزّاز. سعيد كان دائماً أنيقاً ومتألقاً وخاله جبر شخصية هادئة لا تفارق الابتســامة سَــمارة وجهه المملوء بالحِنِّيَّة والطيبة. ومن الملاحظ أيضاً الصورة الكبيرة للزعيم عبد الكريم قاسم وبجانبها صورة لمريم العذراء، وهي دلالة على انفتاح وتقدميَّة عائلتي.

سوق الشورجة، 1959 من اليمين مولود الجايجي، تقي كرماني، محمد حسين، خالي كريم، خلف المكتب صورة الزعيم عبد الكريم قاسم

كان عدنان ابن مولود الجايجي من عمري وكان يأتي في العطلة الصيفيَّة الى الشورجة مثلي كي يساعد أباه. عدنان لم يكن كسائر الأحداث في عمرنا، كان من المهتمين بالدراسة ومن المبتعدين عن اللهو واللعب؛ لذلك كان منتظماً ومتفوّقاً في دراسته. وكُنَّا نتحدّث كثيراً في كلِّ الأمور بمنتهى الصداقة والأريحيَّة خاصة في السياسة، الى أن تكالبت الأحداث الدامية في الموصل في آذار 1959 وكركوك في احتفالات تموز 1959*. كان معظم أفراد عائلتي وأنا واحد منهم من المحبّين للزعيم عبد الكريم قاسم، ولذلك كانت تتصدر محلنا صورة كبيرة له. ومن الجدير بالذكر أنَّه بعد هذين الحدثين المؤسفين تحول نهج الزعيم عبد الكريم قاسم من التوافق مع الخط اليساري متمثلاً بالشيوعيين وحزب البارتي (الديمقراطي الكردستاني) الذين كانوا من أشدِّ المتحمِّسين في تأييده، الى خطٍّ معادٍ لهم ونهجٍ متنكرٍ لهم، ملقياً عليهم كلَّ

اللوم، كما أكّد ذلك في خطابه حينما افتتح كنيسة مار يوسف في 17 تموز عام 1959 وتسميته لهم بـ "الفوضويين" وتركيزه على أنَّه فوق الميول والاتجاهات.

أصبحت هذه الأحداث حديث الشارع العراقي بعد انقسامه الى معسكرين، الأول الشيوعيون والأكراد ومؤازريهم، والثاني البعثيون والناصريون ومؤيدوهم. وبطبيعة الحال أصبح هذا الموضوع مجال نقاش بيني وبين عدنان. كان عمي مولود يتحدث العربيَّة بلكنة إلّا أنّه كان يتحدث الكرديَّة بطلاقة او هكذا تصوّرت. وعليه كان اعتقادي أن أبو عدنان وعائلته من الأكراد الفيلية الذين كانوا يشكلون نسبة جيدة بين تجار الشورجة ومنتسبيها. الحقيقة التي أدركتها من خلال أسى وغضب عدنان من أحداث كركوك أنّه تركماني وليس كرديَّاً. ومن ثَمَّ وبعد أحداث كركوك اصطف تركمان العراق مع البعثيين والقوميين نكاية بالشيوعيين والأكراد. وحقيقة الأمر أنَّ بواطن الصراع كانت عِرقيَّة غُلّفتْ بمظاهر سياسيَّة.

كان الحديث بيني وبين عدنان يتطوّر تدريجيَّاً ليكون مؤسفاً ومؤلماً في آن واحد. كان ينظر الى الأمور من خلال مكوّنه العِرقي ومن أنَّهم أقلية وأنَّهم تحت رحمة الأكراد الذين يشتركون معهم في تاريخ مليء بالصراعات الدمويَّة وخاصة في مدينة كركوك. من ناحيتي كان الانطباع من أن تركمان العراق لهم ولاء خاص لتركيا ومحبّة وتقدير لكمال أتاتورك. كان فهمي لقضية الموصل وكركوك يختلف كثيراً عن المعلومات التي لديه. رأيه كان عاطفيَّاً وعِرقيَّاً

وذلك لحدوث مذابح على الهُوية بين الأكراد والتركمان ولا ألومه في ذلك. أما أنا فكانت نظرتي ســياســيَّة وطنيَّة مقياســها من مع الزعيم والثورة ومن هو ضدها؟

سوق الشورجة، 1961/9/23، من اليمين: واقفين: سعيد وخاله جبر، جالسين تقي كرماني ومحمد حسين وخلفنا بجانب صورة الزعيم لوحة تمثل مريم العذراء وطفلها يسوع المسيح.

أحداث الموصل وكركوك عمَّقت الشرخ بين أبناء الشعب الواحد، والتي مازالت آثارها ليومنا هذا. ولكن حقيقة الأمر أنّ العراق في تلك الفترة شهد صراعاً سياسيَّاً وتدخلات أجنبيَّة خاصة من قبل مصر. ومؤامرات متوالية ومتعددة تجسَّدتْ في المؤامرة الكبرى في صــبيحة يوم 8 شــباط 1963 حين ســالت الدماء بلا حدود، وليعيش العراق تسعة أشهر مظلمة أدت إلى تقويض صرح التقدم الحضاري في العراق ليومنا هذا في اعتقادي على الأقل.

مولود الچايچي ليس من المتعلّمين ولم يحمل آراء سياسيَّة متفوّقة على المجتمع الذي يعيش فيه، إلّا أنَّه استطاع أن يقدم السكن والخبز والثقافة والكرامة لأبنائه من تلك الچايخانة المتواضعة وتلك القواري الثلاثة المتميّزة الألوان هي اللون الأحمر والأزرق والأخضر، ذات النهايات (الصنابير) المثلومة والسماور البرونزي العتيق والفحم الكراجي الأسود، ليتخرّج ابنه عدنان من كلية التربية الرياضيَّة وليكون أحد الحكام الدوليين المهمّين في الألعاب الرياضيَّة وخاصة كرة الطائرة، إذ كنتُ حينما أشاهده متحكماً بالملعب بصفارته، أشعر بالفخر بنجاحه، وأتذكّر والده الچايچي الشهم الذي خدم الناس بعرق جبينه وقدّم لعائلته ما لم يستطع الكثير من الميسورين تقديمه لأبنائهم.

أما الحوار بيني وبين عدنان فإنَّه مازال حيَّاً بشكل وآخر ليومنا هذا بين الناس. الكل على حق، والكل مخطئون. الكل ظالمون والكل مظلومون. وبين هذا وذاك تهدر الشعوب طاقاتها بثرثرة أبديَّة، كي ينفرد بنا ويتسلّط علينا حُكّام لا يستحقون الحياة.

الحمَّال حميد

يعدُّ سوق الشورجة المركز التجاري الرئيسي لمدينة بغداد وعموم العراق. لذا يلجأ إليه الباحثون عن العمل ســواء المهاجرين من القرى والأرياف وخاصة المناطق الجنوبيَّة، أو المهاجرين من دول الجوار مثل إيران. وهناك طبعاً الأكراد الفيليَّة الذي يســكنون المناطق الجبليَّة الحدوديَّة الشرقيَّة بين العراق وإيران.

كان لدينا في سوق الشورجة متجران، الأول لتجارة الجملة ولخزن البضــائع والمكتب، وموقعه في دربونة (زقاق) المعاضــد، والثاني لتجارة المفرد في الدربونة المقابلة وهي دربونة حســين بن روح (مرقد وجامع). المهم أن سوق الشورجة مليء بالحمَّالين (عتالين) الذين يُساعدون المتسوّقين بحمل ما تسوّقوه الى سياراتهم. من بين هؤلاء الحمَّالين فتى اســمه "حميد"، عمره نحو اثني عشرــ عاماً، كان مرابطاً أمام متجرنا في معظم الأوقات. شــاب يجلب الانتباه لشــطارته وسرعته وحذاقة لســانه، وقدرته البدنيَّة. كان حميد يتطوّع للمســاعدة ســواء في كنس او تنظيف المحل، أو توصية شاي لزبائننا وما الى ذلك من الأمور البسيطة التي جعلته يتقرَّب إلينا أكثر. كان أخي ســعد يُدير متجر المفرد وكان مكتبي في محل الجملة (الخان).

جاء ظرف كُنَّا فيه بحاجة الى مســاعد إضــافي لأخي ســعد. اتفقنا على أن نوظف حميد بشــكل دائم معنا، بدلاً من أن يكون حمَّالاً نستخدمه وقت نشاء فقط. فرح حميد كثيراً، وشكرني عدة مرّات

لثقتنا به والاعتماد عليه. أظهر حميد نشاطاً لافتاً للنظر، وحيوية وقدرة استيعابيَّة غير طبيعيَّة، ورغبة ملحّة في تطوير نفسه معنا. إلّا أنَّ سوق الشورجة وغيره من الأعمال التجاريَّة لا تتحمّل الطفرات السريعة، لذا كنت متأنياً في منحه صلاحيات البيع والأخذ والعطاء في التحصيل النقدي. وكان حميد يقول لي بتكرار: عمي كثيرٌ من الزبائن يأتون مبكرين، وسعد يأتي متأخّراً، لو تعطيني المفاتيح أقوم بالواجب. طبعاً طلبه هذا واضح، وبدأتْ شكوكي تصل مناحٍ أخرى. مع ذلك فإنَّ بعض الظن إثمٌ، لذا لم أتصرّف معه بنِيَّة مُغايرة.

نغلق مكتب الجملة عادةً بحدود حوالي ساعة قبل متجر المفرد. بعد ذلك أذهب الى متجر المفرد لمراجعة العمل مع أخي قبل إغلاقه. ولكن في إحدى الأمسيات كان لدينا زبون متأخّر، والبضاعة المشتراة في الخان. تبرَّع حميد بالذهاب، فأعطيته مفاتيح الخان. انتبه أخي سعد على تأخّر حميد أكثر من اللزوم، فطلبتُ منه اللحاق به ومعرفة سبب التأخير. تأخّر سعد قبل أن يعود، وقال لي إنَّه من الأفضل أن أذهب الى الخان، فإنَّ حميد قد فتح "القاصة !!!!!!"

يبدو أنّني أعطيت حميد مجموعة المفاتيح التي بها مفتاح القاصة عن طريق الخطأ. ذهبتُ وكان حميد جالساً يبكي ويقول: عمي والله لم أسرق شيئاً. ذهبتُ الى القاصة فحصتها لم ينقصها شيء، ولكن المحتويات ملعوبٌ بها. حميد فتح القاصة، ولكن لم يعرف كيف يُغلقها، ولا يمكن سحب المفاتيح إلّا بعد إغلاقها. حاول

حميد سـحب المفتاح حينما أقدم عليه أخي سـعد. طبعاً مما لا شك فيه حاول حميد أن يسرق، ولكنّه أرجع ما سرق حينما فشل في غلق القاصـة. سـألته إذاً لماذا فتحتها؟ قال من باب الفضـول فقط، لأعرف ما في القاصة.

كان الوقت متأخّراً، سـألته إن كان قد سرق منا أي شيء، عليه أن يعترف لنا وإلا فسنسلّمه للشرطة. حلف اليمين بعد الآخر، إنّه لم يسرـق أبداً. طالبته بأن يأتي غداً مع ولي أمره، ويجلب معه كلَّ ما سرق منا وإلّا سوف أسلّمه الى الشرطة. جاء حميد في اليوم الثاني مع والدته، وهي امرأة شـعبيَّة في أربعينياتها ومعها بعض البضـائع التي نحن نرميها، لتقول هذا كل ما جلب لي حميد. استمعت إليها جيداً، وقالت حميد مصدر معيشتنا لأنَّ أباه قد تركنا وتزوّج امرأة أخرى. وحميد معيلٌ لي ولأخوته. سـألتها لماذا حاول سرقتنا، حلفت الأيمان أنَّها لا دخل لها، وأنَّه ألحق العار عليها، وتوسّـلت ألا أحبسـه وأويتّمهم. قرار صـعب كان لا بدَّ من اتخاذه، وكان الحكم كما يلي:

أنتِ مسـؤولة أمام الله على تربيته، وعليك أن تتأكدي أن مصـدر رزقه حلال. لن أسـلمه للشرـطة، ولن أعفو عنه. عليه ألّا يتواجد في مناطق عملنا، عليه أن يعمل في مكان آخر، ويتعلّم الدرس، وإن وجدته ذات يوم هنا، سأسلّمه للشرطة.

بقيت قصّة حميد في ذاكرتي منذ عام 1972 وحتى هذا اليوم، لأنَّه فتى ذو إمكانات هائلة. وإنّي لمتأكد لو مُنحت له الفرصـة في تربية

عائليَّة أفضـل، وتعليم مهني لتمكّن من تحقيق عيش أفضـل. كان هذا في عصر "الزمن الجميل" كما يقولون. يا ترى كم (حميد) هناك في مجتمعاتنا المعاصرة، التي لا يحصل حتى خريجو الجامعات على وظائف مناسبة. ومن يحصل منهم على وظيفة، فإنَّه في معظم الحالات يدفع ثمنها نقداً او بالانتساب لمجموعة لا يؤمن بها، تدفعه لاحقاً للقيام بأعمال غير قانونيَّة أو لا أخلاقيَّة؟

العديد من المشكلات الاجتماعيَّة تؤدي الى عمالة الأطفال، من بينها الطلاق من دون حقوق للمرأة أو الأبناء، تعدد الزوجات، عدم تطبيق نظام إلزاميَّة التعليم للمرحلة الابتدائيَّة، الرعاية الاجتماعيَّة للأطفال، وغيرها مما يتطلب تدخل المجتمع والجهات الحكوميَّة المختصّة. كذلك يتطلب الامر تشريع قوانين صارمة تمنع تشغيل الأطفال. لذا فإنَّ الحماية الاجتماعيَّة للعوائل من دون معيل وللأطفال مهمة جداً، وفرص العمل والتوظيف على الكفاءة لا غير. أتمنى أن يكون "حميد" قد وجد الطريق الصحيح له ولأخوته ولوالدته المظلومة.

طموحات نجم الجايجي

يحتلُّ الجايجي في الأسواق التجارية مكانة خاصة بين التجار والعاملين معهم. فمن العادات والتقاليد المتعارف عليها في الأسواق مثل سوق السراي او سوق تجار الاقمشة او علاوي الشورجة او عموم المحلات التجارية في شارع الرشيد وغيره، أن الضيف يُطلب له الشاي حتى من دون الاستئذان منه. ونحن في سوق الشورجة التجاري نعتمد على الجايجي المحلي الذي يُمكننا من الترحيب بالزبون او الصديق بسهولة استضافته على استكان شاي. أيام فصل الشتاء يتفنن الجايجي، فأحياناً يجهز جاي نومي بصرة، وأحياناً جاي دارسين، وقسم منهم في الصيف يجهز ثلاجة خشبيَّة ويضع فيها ربع قالب ثلج ومشروبات غازية مبرّدة لإطفاء حرارة صيف بغداد.

تقودني ذاكرتي الى أحد هؤلاء الجايجيَّة، واسمه نجم فيلي الجايجي، ولديه قهوة تسمى "كهوة نجم"، وهي عبارة عن "جنبر" جايخانه، وتختين واحد من اليمين والآخر من اليسار، يجلس عنده عمال التجار والحماميل (العتالة) الذين لا يملكون مكاناً للاستراحة. القهوة في نهاية زقاق لا مخرج له، وفي نهايته محلنا التجاري الذي هو عبارة عن خان ومكتب وتجارة جملة.

كان عمري في حدود العشر سنوات عام 1957، حينما بدأتُ أذهب مع أبي في العطلة الصيفيَّة الى الخان، وكانت قهوة نجم أمام محلنا، نسمع أحاديثهم ويسمعوننا. ولكن كان هناك مشكلة بين أبي ونجم، لأنَّه يحاول توسيع قهوته على حساب مدخل

وواجهة محلنا، ووالدي يحاول تقليص عدد التخت والجالسين، لأنَّهم يعرقلون المارة ويحجبون عنا الرؤية والرزق. هذا الزقاق كان أصلاً منطقة سكنيَّة يسكن معظمها يهود بغداد.

لا أتذكر منذ كنتُ صغيراً حتى كبرنا أنني رأيت نجم يقوم بمهمة الجايجي فعلاً. حتى أنّه لا يأتي دائماً الى قهوته. كان يعمل لديه جايجي اسمه "رسول" تدرّب على يد جايجي آخر اسمه مولود أبو عدنان، الذي حدثتكم عنه سابقاً. وعليه كان نجم يؤجّر قهوته من دون أن يعمل بها وكان طالباً يسعى لإنهاء الثانويَّة والدخول الى الجامعة.

لم تكن لي معه علاقة صداقة مباشرة بسبب فارق العمر، وطبيعة علاقته مع أبي. وعلى الرغم من أنّه لم يكن عدوانيَّاً، إلّا أنَّه عند الضرورة وبين فترة وأخرى كان يستدعي أحمد الكردي ومعه اثنين او ثلاثة ويجلسون في القهوة ويتحدثون فيما بينهم بتنمّر كي يُسمعوا أبي والآخرين، من أن هذه القهوة لا يستطيع أحد التحرّش بها، ومن أنَّهم سيُدافعون عنها بشراسة، والى آخره من الكلام التهديدي لآذان أبي غير الصاغية.

مع ذلك أعجبتني طموحات نجم. كان يتحدث من أنّه يريد أن يدخل كلية الحقوق كي يتخرّج محاميَّاً، ويُرشّح نفسه لمجلس النواب كي يدافع عن الأكراد الذي يرى أنّهم مهمّشون ومسلوبو الحقوق. كان هذا الكلام منذ أواخر العهد الملكي، واستمرَّ في العهد الجمهوري. ولما كان لديَّ بعض الإلمام في الأمور السياسيَّة، استطعت أن أشخِّصَ أنَّه كان منتسباً لحزب البارتي (الكردستاني بزعامة ملا مصطفى البارزاني)، وليس للحزب الشيوعي الذي كان

معظم الأكراد الفيليَّة وسـكنة عكد الأكراد وباب الشـيخ من أنصاره.

كان نجم حالة نادرة بين أقرانه من حيث هندامه وسـلوكه وطريقة كلامه. كان أنيقاً يلبس بدلة ورباط وهو جايجي. نعم لا يصب الشاي بيده، ولكنه ضمن مهنة تتطلب البساطة وعدم المغالاة في الملبس. كان الجالسون في المقهى من أقرانه يستمعون اليه مُنصتين، وكأنَّه مرشدهم، ولو كان متديناً لقلتُ إنَّه إمامهم.

تخرَّج نجم من الثانويَّة بمعدل لا يسـاعده على القبول في كلية الحقوق، إلّا أنَّه قُبل في معهد السـكرتاريّة، ودراسـته سـنتان، وحصل على دبلوم في السكرتاريّة. من المفروض أن يُسبب ذلك إحباطاً شديداً لنجم، ونكسة في تحقيق آماله وطموحاته في أن يكون نائباً ليدافع عن الأكراد، وإن لم يكن هناك مجلس نواب بالمعنى الصـحيح، كما يقول الشـاعر الرصـافي، في العراق منذ تأسيسه وحتى يومنا هذا.

كل هذا لم يحبط نجم ويخيب آماله، وإنّما اسـتطاع أن يجد طريقاً آخر، ذا مدلولات مناسبة لما فكّر به حينما كان شاباً يافعاً. ففي أحد الأيام من أيّام السـبعينات، وفي فترة من فترات السـلام بين السلطة والبيشمركه، قرأتُ تصريحاً للسكرتير الصحفي للملا مصطفى البارزاني. لا أتذكّر التصريح ولكنّي وجدت صورة وجه أعرفه دققت بها وقرأتُ اسـمه: نعم إنَّه نجم الجايجي، الذي بإرادته وطموحه للدفاع عن أقرانه وصل مركزاً له صوت يُسمع. ولما كانت فترة سلام، فلا بدَّ من السفر الى شقلاوة، ومن هناك ذهبنا الى دربند، وهو نهر صـغير ذو ماء صـافٍ وبارد يجري بين أشجار غابات باسقة، وطبيعة خلابة. وهناك كانت مجموعة من

البيشمركه بكامل سلاحهم، صاح أحدهم باسمي، وإذا به نجم الجايجي السكرتير الصحفي للملا مصطفى البارزاني يُعانقني، ويسألني عن فلان وفلان وفلان. أحسستُ بعمق فرحته حينما رآني، وكأنَّني قلّبتُ مواجعه وأثرتُ حنينَهُ لأيّامنا الجميلة البسيطة في أضيق زقاق من أزقة سوق الشورجة.

سؤال لا يغيب عن تفكيري، ماذا لو دخل نجم كليَّة الحقوق، وماذا لو تخرّج محاميًّاً، وماذا لو كان للعراق مجلس نواب معتبر، وماذا لو أصبح نجم نائباً فيه، وماذا لو استطاع النواب تشريع قوانين تضمن حقوق الجميع ومن بينم الأكراد والتركمان والآخرون، ماذا لو تحققت أحلام صبا نجم .... من دون تغيير، هل كان سيكون العراق على ما هو عليه الآن؟

المنتمي واللا مُنتمي

قوّة الأشياء

قوّة الأشياء عنوان كتاب قرأتُه في منتصف ستينات القرن الماضي، للكاتبة الفرنسية الوجودية ذائعة الصيت سيمون دي بوڤوار*. ولا يَخفى على أحد أنّها كانت رفيقة درب المُفكّر الوجودي جان بول سارتر، واللذان كوّنا معاً ثنائيَّاً ناشطاً في السياسة والأفكار الوجوديَّة، كاد أن ينافس أطروحات الثنائي الجدلي كارل ماركس وفردريك أنجلس، خاصة بين صفوف المثقفين والكتاب والفنانين والأدباء، وليس في عموم ووسط الجماهير التي كانت في أوروبا جميعها يساريَّة بامتياز، بعد ما عانته من طغيان ودمويَّة النازيَّة الألمانيَّة والفاشيَّة الإيطاليَّة. لم يكن المثقفون والمفكرون بعد الحرب العالمية الثانية في صراع ذهني بأفضليَّة الاشتراكيَّة أَو الرأسماليَّة، وإنّما كان الصراع الفكري بين مدى المسؤوليّة الاجتماعيّة والعمل الجماعي كما يراه الماركسيون وبين الخوف على فقدان الحريَّة الفرديَّة ولا سيما في التفكير والتعبير الذي تبنّاهُ الليبراليون والوجوديون. كانوا يبحثون عن نقطة التوازن الجديدة التي سيرتكز عليها العقد الاجتماعي الجديد (جان جاك روسو). كان الوجوديون على الرغم من قِلّتهم، خلية نحل لا تملّ ولا تتعب ولا تركد، إذ كان الثنائي سارتر وبوفوار غزيري الكتابة، متنقلين ومسافرين ومتابعين، لا يفصلون بين حياتهم الخاصة ونشاطهم العام، يحاضرون في الجامعات،

ويتناقشـــون في المقاهي والبارات، ويتحمّلون المشـــاكســـة في الندوات.

عنوان الكتاب "قوّة الأشياء"، مترجم حرفيّاً عن الفرنسـيَّة " La Force Des Choses"، ولكن في اللغة الإنكليزية سُمِّيَ الكتاب: " The Forces of Circumstance"، والترجمة الحرفيَّة لذلك هي "قِـوَى الـظـرف". وفي تــرجــمــة أخــرى "Force of Circumstance"، وترجمتهـا "قوة الظرف"، ولكن حينمـا نقرأ سرديَّة بوفوار لســيرتها الذاتيَّة عبر هذا الكتاب الوصـــفي الممتع المليء بتفاصـيل وتحليل رائع للأحداث والأشـخاص والمشـاهد والتقلّبات والصـراعات الفكريَّة والســياســيَّة المحتدمة، كلّ هذا يجعلني أفكّر من أنّهـا تعني "قوة الأحـداث" أو بـالأحرى "تحكم الأحـداث" في تلـك المرحلـة مـا بعـد الحرب العـالميَّـة الثـانيـة. الأحداث الصغيرة الناعمة البسيطة التي تمرُّ على الآخرين من دون أن يحسُّـــوا بهـا، والأحـداث الكبيرة المهولـة التي تهزُّ وترعـبُ الجميع، عدا المثقف الثوري الذي يُقحم نفسه في قارورتها. نعم، كلّها تترك علينا انطباعات جديدة وتملي علينا قناعات لم ندركها من قبل، خـاصـــة الأحـداث الســـيـاســـيَّة الكبيرة او العلاقات الشـــخصـــيَّة العميقة، وعلى الأخص العلاقات العاطفيَّة في العمر المبكر.

تتحدّث ســيمون دي بوفوار في قوة الأشـــياء عن الصـراعات والمنافســـات الفكريَّة في داخل اليســـار الأوروبي من جهة، وبين اليســـار واليمين والنازيَّة الجديدة التي لم تتخلَّ عنها شريحة كبيرة

من الشـــباب الذين تربّوا وتأثّروا بأفكار هتلر وموســـوليني. كذلك تتحدّث عن سفرها وترحالها الى إيطاليا والجزائر والبرتغال، وكيف أنّهم كانوا ما يزالون يصـــارعون الفكر النازي والفاشي، الذي مازال يحكم إسبانيا والبرتغال بقيادة فرانكو وسالازار.

طريقة وصــفها للأشــخاص والأحداث ليســتْ عفويَّة، او سرديَّة بحتة، وإنّما وصـــف ينمُّ عن التزام بفكر إنســـاني، فحينما ركبت القطار الشـــعبي البطيء من مدينة الجزائر الى مدينة بيســكرا، لم يتسنَ لها الوقت لشراء التذكرة. وحينما جاء مفتش التذاكر طلب أن تشــتري التذكرة منه. عدَّ المفتش الجزائري أنّ ركوب فرنســيَّة في قطاره الشـــعبي مســـألة تدعو للفخر والاعتزاز، ولم يُغرّمها أو يقطع لها التذكرة، بينما في الوقت نفســه شــاهدته يشــتم ويرمي الرُّكّاب الجزائريين الذين لا يملكون ثمن التذاكر في الصـــحراء من القطار وهو سائر. تقول بوفوار باستغراب، إنَّ المفتش رفض أخذ الأجور من الذي يملكها، ولكن لم يســـامح أبناء جلدتِهِ لأنَّهم لا يملكونها (ص 89).

تغلغل الفكر الوجودي لدى العديد من الكتاب العراقيين والعرب مثل أســتاذ الفلســـفة المصـــي عبد الرحمن بدوي، والأديب القصصي العراقي حسين مردان، إلّا أن الفكر الوجودي بطبعه فكرٌ ذو نزعة فرديَّة، وتقديسٌ للذات مبالغٌ فيه على أقل التقدير، علماً أنَّ ســـارتر كان على علاقة وطيدة بالشـــيوعيين الفرنســـيين إبّان حِقْبَة مقاومة الاحتلال الألماني وبعدها، لأنَّ خَيار الاشتراكية بعد الحرب العالميَّة الثانية لم يكن موضـــوع حوار، وإنّما كان الخَيار

الأوحد، إذ يرى سـارتر أنَّ الاشـتراكية هي خط الإنسـانيَّة الوحيد (ص 15)، بينما يرى الشـيوعيون أنَّ "الشـيوعي هو البطل الدائم لعصره" (ص 68). اسـتطاع المفكرون الماركسـيون والوجوديون تارَةً بالصراع وتارَةً عن طريق التصالُح الفكري، من أن يتوصّلوا إلى توازن بين بناء مجتمع اشـتراكي مع الاحتفاظ بالحقوق الكاملة للحريَّة الشـخصـيَّة، وهو أنموذج انتشر في أوروبا الغربيَّة وحقق نجاحاً وديمومة أكثر من الأنموذج السوفيتي ودول أوروبا الشرقيَّة.

ولذلك كُنَّا نحن الشـباب المتطلّعين إلى أوروبا كأنموذجنا المثالي نسـتغربُ ولا نجد جواباً مقنعاً لسـؤال منذ ذلك الحين وليومنا: لماذا اختارت أوروبا الغربية الاشـتراكية، أو على أقل تقدير نظام حقوق مدنيَّة وضمانات اجتماعية واسعة سبيلاً لرُقي مجتمعاتها، بينما أنكرت ذلك على مستعمراتها، حيث شُجع او فرضت عليهم تركيبة القرون الوسطى، البناء الإقطاعي الرجعي الغارق في الطبقية والاضطهاد الاجتماعي والسياسي.

إن ما كان يروم اليه شـباب السـتينيات في العالم الثالث ومنهم العراق هو بناء أنموذج سـياسي أقرب إلى أوروبا الغربيَّة منه إلى أنموذج الاتحاد السوفيتي. لذلك فإنَّ سارتر رغم فكره الوجودي، إلّا أنَّه لم يعارض قيم الاشتراكية الأوروبية، على الرغْم من خشيته الخاصة على ألا يؤدي ذلك إلى اضـمحلال دور الفرد وخسـارته لحريته. لو أنَّ أوروبا الغربية نشرت أفكار "الاشـتراكية الديمقراطية" كما تبنّتها في بلدانها بعد الحرب العالميَّة الثانية، لانتقلتْ دول العالم الثالث من النسـيج السـياسي والاقتصـادي

والاجتماعي للقرون الوسطى المظلمة إلى مجتمعات حضاريَّة متألقة بالمسؤولية الاجتماعية الجماعية والحرية الفردية المبدعة، ولكن سياسات أوروبا الخارجيَّة تختلف بـ 180 درجة عن سياساتها الداخليَّة، ولذلك فنحن مستمرون بمسيرة التقهقر الحضاري يوماً بعد آخر.

---

*سيمون دي بوفوار، قوة الأشياء، ترجمة عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب، بيروت، 1964.

روح التمرُّد لدى زوربا

كانت سنوات الستينات والسبعينات من القرن المنصرم، هي سنوات الزمن الجميل للعراق والعراقيين. نعم كانت كذلك بالنسبة لي وللكثيرين من أمثالي ونحن في سنِّ الحداثة والمراهقة والشباب، ولكنَّها كانت سنوات حلوة مُرّة لنا، لأنَّنا كُنَّا نحمل رأياً وحلماً لعراق أفضل. وللأسف الشديد فإنَّ أيَّ تفكير ولو بسيط خارج إطار أيديولوجية السلطة يعتقده الحكّام تهديداً مباشراً لهم. نعم حلوة مرّة لمجموعة من الشباب الذي تثقفوا وتورّطوا بأفكار ونشاطات غير مقبولة من قبل الحكّام، فلقد كانت أعوام الستينيات ولا سيما بعد ردّة ٨ شباط ١٩٦٣، ونكسة 5 حزيران 1967، سنين هزيمة وتشاؤم وضياع وخذلان وفقدان لبوصلة الحياة. إذ أدت الاعتقالات وقسوة التعذيب وعقوبات السجن الطويلة الأمد لشباب التيار التقدّمي اليساري في العراق، والعديد من دول العالم الثالث الى عدم القدرة على ممارسة أي نشاط سياسي يُذكر أو حتى التفكير بأبعاد وآراء جديدة. وكان لذلك ردود فعل سلبيَّة على أسلوب الحياة للعديد من الشباب الذين قُوِّضَتْ همّتُهم وحُطِّمَتْ روحُهم المعنويَّة وعانوا من الإحباط الشديد، جراء البطش المستمر المخيف، من قبل حكّام وجيوش لم يصمدوا أكثر من 5 ساعات أمام دويلة اسرائيل.

لذا كُنَّا نبحث عن قناعات وتفسيرات وحلول وملاذات، كي نتنفّس بها بعض الأوكسجين النقي ذي البعد الحضاري والثقافي على الأقل. لذلك كُنَّا نجد متنفّساً لنا في أشعار نزار قباني ومظفر النواب حول فلسطين والحُكّام العرب، وقصائد أحمد فؤاد نجم وأناشيد الشيخ إمام ودفاعهم عن "الغلابة"، ومسرحيات فرقة المسرح الحديث، مثل مسرحية "النخلة والجيران" ونجومها يوسف العاني وزينب وناهدة الرماح ومؤلفها المبدع "غائب طعمة فرمان"، كذلك برنامَج السينما والناس من إعداد علي زين العابدين وتقديم المثقفة الجميلة اعتقال الطائي المتميزة بشعرها الأسود الطويل، وكلاهما من ذوي الميول اليساريَّة الواضحة المعالم، لذلك كانت سهرة مساء الأحد معهم سهرة ثقافيَّة، فضلا عن كونها ترفيهيَّة.

كذلك كُنَّا نتابع الجديد من المؤلفات الأوروبيَّة الجديدة والأفلام التي تحمل بين طياتها أفكاراً تُلهمنا وترفع من معنوياتها المنخفضة. من بين ذلك كانت قصص وأفلام نجيب محفوظ الثلاثيَّة "بين القصرين، وقصر الشوق، والسُّكريَّة"، و "ميرامار" و"ثرثرة فوق النيل". ومن بين الأفلام التي أحدثت ضجة كبيرة بين أوساط الشباب والمثقفين في الستينيات كان فيلم "سبارتاكوس" محرر العبيد بطولة "كيرك دوكلاس"، وفيلم "زوربا اليوناني" بطولة انتوني كوين وآرين باباس، والموسيقى من تأليف الموسيقار اليوناني والناشط السياسي والمناضل من أجل الإخاء والسلام العالمي "ميكيس ثيودوراكيس" " Mikis Theodorakis" الذي عُرض في سينما غرناطة، صالة الأفلام الراقية يومذاك.

من اليمين: حاذق، محمد حسين، مجيد. المستنصرية 1968

ظهر فيلم زوربـــا اليوناني عام 1967/ 1968 وكُنَّا حينها طلاباً في الجامعة المســتنصريَّة (الكلية الجامعة آنذاك). قرّرنا أن نذهب لمشـــاهدته أنا والزملاء الأعزاء حاذق ومجيد. وبما أنَّ الفيلم يحتوي على موسيقى راقصة، فقد قرّرنا أن ننتعش باحتساء بعض الجعة قبل مشاهدة الفيلم كي يكون الاستمتاع مضاعفاً. وفعلاً ذهبنا مُبكراً الى سـينما غرناطة وقطعنا التذاكر للعرض المسـائي، ثم ذهبنا الى "الركن الهادئ" وهو مطعم وبار كان قد افتتح حديثاً، قرب سـينما الخيام. كان السـوق في ذلك الوقت يُعاني من شحٍّ ونقصٍ في توفر الكثير من السـلع الاسـتهلاكيَّة والتموينيَّة. إذ كان معتاداً أن ترى طوابير الناس أمام الأسـواق يتصـارعون على طبقة بيض او دجاجة مجمَّدة. كذلك شملت الأزمة المشروبات الغازيَّة والحليب والكحول، لذلك كان "الشريبة" حينما يطلبون القنينة الثـانيـة يكون المتوفر من البيرة قـد نفـد في الكثير من الأحيان. وعليه حينما جاء النادل طلب "مجيد" ثلاث قناني من

بيرة "فريدة" مما أثار اســتغرابنا، وقلنا له: مجيد إنّنا راحلون الى السـينما خلال نصـف سـاعة، وعليه شرب قنينة واحدة أكثر من كافٍ. أجابنا مجيد بأنَّ البوي (النادل) يعرف "اليكون مالتي". وكلمة اليكون مصطلح محاسبي تركي من مصطلحات "البلانجو" وهو مصــطلح محاســبي تركي عثماني آخر. المهم حاولنا أن نثني مجيد عن طلبه إلّا أنه أصرَّ عليه. جاءت الطلبات وإذا بمجيد يشرــب بسرــعة فائقة، كي نغادر قبل بدء العرض الســينمائي المرتقب.

خرجنا معاً من بوابة الركن الهادئ الذي لم يكن اسماً على مُسمّى بتاتاً. ذهبنا يســاراً باتجاه حديقة الأمة ثم شــارع الكفاح مروراً بســينما النجوم كي نصــل ســينما غرناطة. لاحظنا في منتصــف الطريق أن مجيد ليس معنا. توقفنا قليلاً ولم نرَهُ، وتصوّرنا أنَّه قد سبقنا. وصلنا بهو الصالة ومجيد لم يكن هناك. بطاقات الدخول الثلاث كانت معي. انتظرنا لحين رفع الســتارة ولم يظهر. لم يكن من الأمر بدٌّ، شاهدنا ذلك الفيلم الرائع وتلك الموسيقى الراقصة والحركات الغجريَّة التي يُحرّك بها زوربا أرجله وكأنَّها كعوب غزال شارد ويخفق يديه وكأنَّها أجنحة نسر. مسافر الى علوٍ لا حدود له. حركات تحاكي المشــاعر قبل الجســد، مجسّــمة روح التمرّد والانطلاق نحو الحريَّـة والعبثيَّـة، وتحـدياً للعـادات والتقـاليـد البالية.

لم يكن لأيٍّ منّا ســيارة في ذلك الحين، لذا سرنا باتجاه ســينما الســندباد كي نســتأجر تكسيـ النفرات (السرـفيس). ونحن نسـير

تحت نصب الحرية الشامخ المُطلّ على ساحة التحرير، وإذا بنا نسمع منادياً: محمد ... حاذق... وإذا به مجيد!" هاي وين رحتوا؟، قال مجيد معاتباً "أنت وين رحت؟" أجابه حاذق بالسؤال نفسه. "أكُلكُم انتوا موكلتوا الفيلم يوناني، اشو طلع هندي" يابه شلون هندي! ليش أنت ليا سينما رحت؟ سألته باستغراب. سينما الخيام: أجاب مجيد. يبدو حينما خرجنا من الركن غير الهادئ ذهب مجيد يميناً باتجاه سينما الخيام (بفعل اليكون) بينما نحن ذهبنا يساراً. "طيب وشلون دخلت للقاعة؟" أخبرت الحرس بأنَّ بطاقتي مع أصدقائي وانّهم سبقوني. كانت السينما فارغة، وحينما دخلت الصالة تناولت أول كرسي فارغ ويبدو أنّني غفوتُ على أنغام زوربا وعذوبة الرقص الهندي سريع الحركات، لحين ما أيقظني الحرّاس. ضحكنا... وضحكنا... وضحكنا...، ولم أتمالك نفسي وقلّدت حركات زوربا اليوناني، عفواً الهندي بهياج مفرح، تحت نصب الحريَّة الذي مازال شامخاً في قلب مدينة بغداد النابض، وينتظر منّا أن نكسر القيود من جديد مثل زوربا، ونصنع قدرنا من دون تردد او خوف او وجل.

شبوط في مستشفى الطوارئ

كان ذلك في صــــيف عام 1966 حينما بدأت آلام الزائدة الدوديَّة تشتدُّ عليَّ لدرجة موجعة جداً من الصعب احتمالها. وقيل لي من أنّني لا بدَّ أن أتهيأ لاســـتئصـــالها. قلت لوالدي ســـوف اذهب الى المســتشــفى الجمهوري كي يســتأصــلوا الزائدة. رفض والدي ذلك لأنّنا عائلة ميسورة، وقال لي لا بدَّ أن يتمَّ ذلك في مستشفى أهلي. قلت لوالدي إنّها عملية بسـيطة وانت تعرف أفكاري الشـعبيَّة ولا أريد أن أعامل باعتباري من أبناء الذوات. أنا واحد من هؤلاء الناس العاديين، أريد أن أمر بتجاربهم ســـواء أكانت جيدة أم تعيســـة، بســـيطة أم معقدة، فاشـــلة أم ناجحة. أجابني والدي بأنّه يفهم موقفي، ولكن الناس سـيعتقدون أنّنا أناس بخيلون. قلت: يا أبي لا يهمني ما يقوله الناس. وتطور النقاش بيننا ولم نصـــل الى نتيجة وســـمع بالموضـــوع خوالي ومنهم خالي محســـن الذي اقترح حلّاً وســـطاً. إذ إنّه لديه صـــديق ضـــابط في الجيش وهو بدوره لديه صديق جرّاح في مستشفى الطوارئ في الشيخ عمر. وقال لي خالي: الطوارئ مســـتشـــفى حكومي مجاني وشـــعبي كما تريد، ولكن على الأقل ســـيكون الجرّاح من معارفنا وســـيهتم بك ونكون نحن على اطمئنان.

وافقتُ على هذا الحل إرضـــاءً للجميع وخاصـــة لوالدتي التي كانت قلقة جداً من العمليّة، ما بالك إن أجريت في مكان غير مناســـب.

تمت الترتيبات على ذلك وذهبنا أنا وأبي وخالي محسن وصديقه الضابط الى مستشفى الطوارئ لنلتقي بالجرّاح، وكان كل شيء معدّاً للمباشرة بالعمليَّة. وقبل البدء بإجراءات التخدير، طلب الجرّاح من أحد الممرضين فتح الراديو والبحث عن إحدى أغاني أم كلثوم الجديدة "أنت عمري" و "أنت الحب" التي كانت تُعزف ليل نهار في معظم الإذاعات العربيَّة. وأخيراً اتفقوا أن تُجرى العمليّة على أنغام "أنت عمري". وقال لي الجرّاح وبيده المشرط، اطمئن قبل أن تنتهي أم كلثوم من الأغنية نكون قد انتهينا من العمليَّة.

طبعاً أنا مُمدّدٌ على طاولة الجرّاح الذي بيده السكين من جهة وسيطرب ويصيح الآهات مع أم كلثوم من جهة أخرى. شعرت بالقلق، ولكن قلت لنفسي- إنّها الثقة بالنفس. ربما هذا هو الطب الحديث. نعم إنّهم أطباء شباب ومن مدرسة الطب الحديث! أم ربما أنّهم لا يبالون، وبأرواح مرضاهم يستخفون؟ لا أدري اختلطت عليَّ المشاعر وتذكّرت إلحاح أبي وعدم رضاهُ على اختياري. وبينما كُنَّا في منتصف المقدمة الموسيقيَّة الرائعة لعبقري الموسيقى العربية محمد عبد الوهاب وقبل أن تصدح حنجرة أم كلثوم بصوتها الهادر المؤثر تسلل البنج (المخدر) الى رأسي. أفقت فعلاً قبل أن تنهي كوكب الشرق آخر مقطع من تلك الأغنية التي جمعت لأول مرة بين عمالقة الفن العربي.

أخذوني الى غرفة النقاهة ذات السريرين. كان في السرير الأول رجلٌ مُسنٌّ والسرير الثاني كان لي. كان سريره أقرب الى باب الغرفة، أما

سريري فكان أقرب الى النافذة. ولما كُنَّا في منتصف صيف عراقي من الدرجة الأولى فإنَّ النوم قرب النافذة يعدُّ بمثابة رحلة الى المصيف. استيقظتُ في اليوم الثاني وطلب مني الممرض أن أتمشّى في ممرات المستشفى حتى أفرغ جوفي من البنج وارتاح. وفعلاً استمريت بالتجوال وتعرّفت على بعض الوجوه وما يجري في ردهات المستشفى من أشخاص وأحداث وقصص. وجاء الفرج وشعرت بدوار وغثيان وذهبت الى الحمام وتقيّأتُ سمَّاً مُرَّاً اهتزَّ له كلُّ جسمي. إلّا أنّي شعرت براحة كبيرة وكأنَّ ثعباناً كان مختبئاً في صدري وتخلّصت منه.

ذهبت الى غرفتي وكان ينتظرني المعين (الفراش) وكان نحيفاً جداً وطويلا جداً يبدو من محياهُ أنَّه من أبناء الجنوب وأنّه من سكنة مدينة الثورة. سألني عن اسمي وقال لي ان اسمه "شبوط". لأول مرة اسمع بأنّ شخصاً اسمه شبوط الذي هو عادة نوع من أنواع السمك العراقي النهري الفاخر. كان شبوط بشوشاً مُنكّتاً يفتعل الفكاهة ولديه كل أخبار الأطباء والممرضات والمرضى وما يدور بينهم. وبدأ يحدثني عن الشقاوة الفلاني الذي طُعِنَ بالسكين في عكد الأكراد والمومس الفلانيَّة التي اعتدى عليها خمسة من الأنذال طوال الليل مراراً وتكرارا حتى نزفت لتموت لولا أن أنقذوا حياتها في الطوارئ، والصبي الفلاني الذي اغتصبه معلّم الرياضة. قصص مذهلة لا تسمع عنها في المستشفيات الأهليَّة والمجتمعات البرجوازيَّة.

ولكنّي سألته عن فتاة شابة رأيتها تتمشى في الممرات لابسة دشداشة سوداء رقيقة ذات قوام في منتهى الرشاقة ووجه في أبهى صورة لفتاة من أجمل ما يمكن، ولكن يغلب على محياها حزن عميق وشرود مذهل. سألت شبوط: ما هو موضوعها؟ لم يستطع شبوط البدء بالكلام قبل أن يشعل سيجارته، كي يسرد عليَّ قصّتها المؤلمة من أن حبيبها قد هجرها وتزوّج غيرها فحرقت نفسها واحترق كل جسمها ما عدا وجهها. أرادت الموت ولكن الطب لم يرحمها وأبقى عليها كي تعاني الأمرين. فقدت الحبيب وفقدت الجسد وتبقى الروح تلوب بين الحسرة والندم. هزني شبوط بهذه القصّة المؤلمة ورأيت التأثّر في لمعة عيونه وفي الغُصّة في كلامه. نعم كان الجميع يتعاطف معها ويتأسّف عليها. ولكن يا ترى ما كانت مشاعرها وكيف كانت تفكّر بداخلها؟

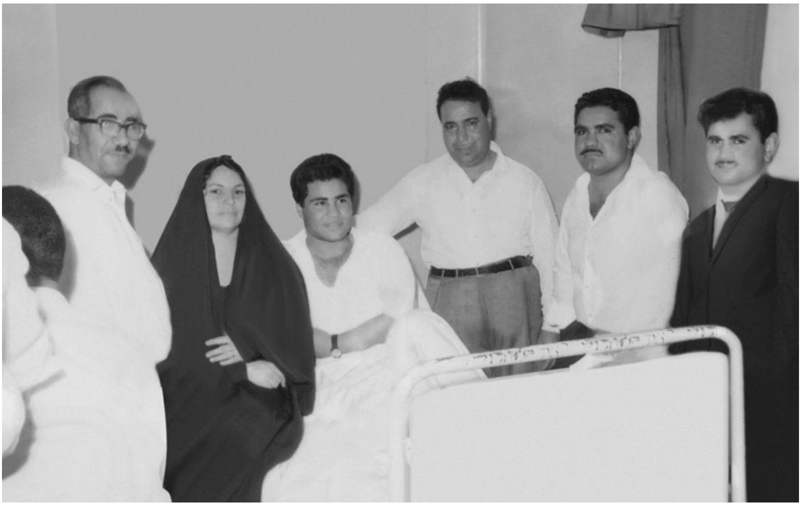

من اليمين: خالي محسن، خالي كريم، خالي مهدي، محمد حسين، أمي وأبي

جاءت الظهيرة وإذا بأبي وأمي وخوالي مهدي ومحسن وكريم يأتون لزيارتي ومعهم ما لذ وطاب من أكل وفاكهة ولحوم. فما كان إلّا أن فرشـــوا الســـفرة وبدأنا نأكل جميعاً وأصرَّ خالي مهدي على نحر الرَّقيَّة (البطيخ الأحمر) كي نبرد بها قلوبنا. أما أمي فقالت احتفظ بهذه الدجاجة المســلوقة للعشــاء وعليك أن تأكلها بكاملها لأنّك بحاجة الى تعويض ما فقدت من الدم ووجهك أصفر شحيح. ولم تدع أي شــخص يمس الدجاجة. كان اجتماعاً عائليَّاً من أجمل ما يمكن تخللته النكات والضـحك خاصــة من قبل خالي مهدي. أما والدي فكان متعباً من المرض العضال الذي بدأ يظهر على محياه. ولكن في ذلك اليوم كنتُ أنا المريض وأنا مركز الاهتمام، إذ إنَّني في ذلـك الحين كنـت الفتى الأول في العـائلـة ومركز اهتمـام جميع أفرادها.

ذهب الجميع وبعد ذلك الأكل اللذيذ، اســتغرقت في نوم ظهري صــيفي عميق، لم أفق منه إلّا على صــيحات شــبوط وهو يلعن البزونـة (القطـة) التي سرقـت الـدجـاجـة وأكلتهـا. ثم أخـذ بـالكلام لماذا تركت النافذة مفتوحة؟ يا "أبو جاســم" ألّا تعلم أنَّ البزازين هنا بانتظار الفرص الذهبيَّة؟ واســتمر بالكلام الذي من كثرته بدأ يفضــح نفســه بنفســه. نظرت الى الجدر فلم أجده مقلوباً ولم أرَ ماء الدجاج (المرق) مســكوباً على الأرض. وبذلك كانت عملية نصــب واحتيال وقرصــنة متقنة قام بها شــبوط كي يســتولي على دجاجتي ويســتغفلني وأنا نائم. المشــكلة أنني تعاطفتُ مع شــبوط لخفة دمه ودماثة خلقه ولسرده تلك القصص لي عن العائمين في فضاء مستشفى الطوارئ. ولعلَّ شخصاً مثل شبوط رغم طيبته لا يجد ضرراً في الاســتيلاء على دجاجة ابن عائلة برجوازيّة يزاحم

الفقراء في مستشفاهم! ولهذا السبب قررت التعاطف معه وعدم مواجهته في موضوع القرصنة. ولكنّي سألته: ألم تترك البزونة لي فخذاً أو جنحاً أو شـــويت لحمة صـــدر؟ قلت ذلك بطريقة اســـتهجانيَّة. بان الاســـتحياء على وجهه وقال ولا يهمك "أبو جاسم" اليوم أكل المستشفى من أحسن ما يمكن وعشاك على حســابي. وظللت أسأله كيف خطفت البزونة الدجاجة؟ وفي كل مرة يسـردها لي بطريقة مختلفة ولكنها مسـليّة ومشـوّقة. وكان الضحك نهاية الكلام.

عادل الشعرباف
وذكريات البيت الأحمر

عادل الشعرباف

"البيت الأحمر" هو الاسـم الذي أطلقناه على البيت الذي انتقلنا اليه في صـيف عام 1961. انتقلنا من شـارع الهندي في محلة البو جمعة الى بيت أكبر منه في محلة البو شـجاع في الكرَّادة الشرقيَّة

خارج. كان هذا البيت واســعاً جداً وذا حديقة كبيرة معتنى بها مملوءة بأشجار البرتقال والنارنج مع قمريَّة عنب عامرة وتشكيلة كبيرة من أنواع الورود مثـل الرازقي والجوري وحلق الســبع والقرنفل. كان البيت مصـبوغاً من الخارج باللون الوردي والبوابة كبيرة وعـالية جداً ومصــبوغة باللون الأحمر، ولم يكن هـذان اللونـان يســتخـدمـان بكثرة لهـذا الغرض. والـذي لا يعلم أنّنـا مســتأجرون ولســنا مالكين، قد يظن أنّنا صــبغناه لأن أفكارنا حمراء!، مع ذلك لم نكن ســعيدين تماما لانتقالنا. وســبب لنا الانتقال ردّة فعل نفســيَّة واجتماعيَّة لي ولأخوتي وحتى لوالدتي، لأنّنا سـكنّا في شـارع الهندي لمدة سـت سـنوات ولنا العديد من الأصـدقاء والجيران الذين كان من الصـعب الابتعاد عنهم. إلّا أنّه كان لا بدَّ من الانتقال لحاجتنا لعدد أكبر من غرف النوم.

كان ضـمن جيراننا في عام 1961 في البيت الأحمر عائلة تسـكن في صريفة (بيت طيني عشــوائي) في الأرض الوحيدة الشــاغرة بين البيوت. كانت هذه العائلة تتكوّن من الزوجة واســمها "صـينيَّة" التي ربمـا ســمّوهـا كـذلـك لأنَّ أنفهـا كـان مفروشـــاً (بـالعراقي أفنص) والزوج واســمه "دوّاي" وطفلين. دوّاي يعمل في بلدية الكرّادة الشرــقيّة عاملا أو مســتخدما. كان كثيرَ التدخين إلّا أنّه خجول جداً ومقتضب الكلام حتى عند السلام. أما صينية فكانت شــيئاً آخر. كانت تدخل كل البيوت، وكل البيوت ترحّب بها رغم الفوارق الطبقيَّة والاجتماعيَّة. كانت "عُزْبِيَّة" غير متعلّمة لا تقرأ ولا تكتب، ولكنّها كانت مثقفة وجميلة الملامح ولها طلَّة محبوبة جدّاً وذات توجه سياسي وسيدة مجلس من الدرجة الأولى. لديها كل المعلومات عما يدور في حارتنا وعن الأمور الســياســيَّة وعن

الصراع الذي كان حامي الوطيس آنذاك بين البعثيين والشيوعيين والزعيم عبد الكريم قاسم. تتحدث مع الصغير والكبير ومع الرجال والنساء بمنتهى الثقة والأريحيَّة.

ومن بين جيراننا الذين يمتازون بظاهرة فريدة هم بيت الحاج باقر بديوي الذي يعيش مع والده الحاج جواد بديوي في بيت واحد. كان كلّ واحد منهما متزوّجاً من امرأتين. إحداهما عراقيَّة والثانية سوريَّة. وحسب ما تقول صينيَّة إنّ الأربع نساء يعشن في منتهى السعادة والوفاق. كان تعدد الزوجات ظاهرة نادرة جدّاً في بغداد. كذلك كان الطلاق والانفصال. أما الخصام والزعل والصياح بين الزوج والزوجة أو بين امرأة العم والكنة (زوجة الابن) فإنّها كانت شائعة ونسمع الكثير من القصص حول ذلك. أما عائلة بديوي فكانت تعيش في سلام ووئام حسب ما نقلته وكالة أنباء صينيّة.

أما البيت الأبيض اللون المجاور لنا فهو بيت "الحاج حسين الشعرباف" وهم عائلة معروفة وكان من مُلاك العقارات. كان يُعقد في بيت الشعرباف جلسات شهريّة (جلسة ديوان) تشارك بها مجموعة من الوجهاء والمثقفين. وكان لديهم مُستخْدَم خاص يقوم بقضاء احتياجاتهم المنزليَّة ومن بينها عمل وتقديم القهوة في جلسات الديوان. أتذكّر من عائلة الشعرباف شخصين أحدهما حكمت ويكبرنا بنحو عشر سنوات وهو ابن الحاج حسين، والآخر "عادل" وهو ابن بنت الحاج حسين، والذي كان عمره من عمري تقريباً. كان عمرنا في ذلك الحين نحو الأربعة عشر عاما ولم نحلق ذقوننا بعد.

مضت الأيام والسنين وانتقلنا عدة مرات في انحاء الكرّادة الشرقيّة، لحين عام 1975 حينما كنت مارّاً في شارع الرشيد قرب سينما روكسي - رأيت عادل الشعرباف واقفاً وأمامه على الرصيف مجموعة من الكتب المستعملة يبدو عليه أنّه يروم بيعها. سلّمتُ عليه بحرارة لأنّي لم أرَهُ منذ أن انتقلنا من تلك الحارة قبل اثنتي عشر عاماً. وأنا أتكلم معه كنت أفكر ان عادل من عائلة ميسورة، لماذا يبيع الكتب كأنّه نفر من الكادحين؟ على أية حال قررتُ أن اشتري منه بعض الكتب كي أشجّعه. تقلّبت عيناي على كتبه التي لا يتجاوز عددها الثلاثين كتابا معظمها يبدو عليها القِدم والتمزّق وأنّها قد قُرئت لعدّة مرات. بعد ذلك أخذت العناوين واسماء المؤلفين ترسل شرارات كهربائية من أخمص قدميّ لأعلى شعرة في رأسي. من بين تلك الكتب: ما العمل؟ (لينين)، عشرة أيّام هزت العالم (جون ريد)، الأم (مكسيم كوركي)، رأس المال (كارل ماركس ترجمة د. ابراهيم كبة)، والفولاذ سقيناه (نيقولاي اوستروفسكي)، و... كلها أسماء وكتب ممنوعة ومحظورة، وإذا مُسكتْ في بيت أحد عند التفتيش تعدُّ من الأدلة الدامغة.

سألت عادل ما إذا أصبح بيّاع كتب؟ امتعض من سؤالي وأجابني بنوع من الحدّة: كلا، إنّما أنا أنشر الثقافة التقدميَّة والفكر الثوري ... عندها اعتذرت واستأذنت منه بالرحيل ولَم اشترِ أيَّ كتاب، لا لأنّي كنتُ قد قرأت كل هذه الكتب وغيرها وأحرقناها في 8 شباط عام 1963، وإنّما ليقيني الجازم من أنه كان مراقبا ومرصودا من قبل المخابرات التي تعمل باستقلالية تامة عن أي اتفاق سياسي أو جبهوي أو غير ذلك، لعلمهم وثقتهم بقصر أمده، وأنّه سيأتي اليوم الذي يطلبون منهم اعتقالهم. ابتعدت عنه باتجاه الباب

الشرـــقي وأنا متوجسٌ من إن أحداً ســـيتبعني. ظللت ليالي وأياماً متخوّفاً من "طوارق الليل وزائري الفجر". وظللت أفكر ما جدوى ما يقوم به عادل؟ وهل يســـتحق ذلك العمل المخاطر التي حتماً ســيتعرّض لها؟ ولماذا لم تتعلّم الحركات الســياســيّة من تجارب الماضي القاسية؟

مرّت عقود من الزمن وعبرنـا القرن العشرـــين الى القرن الواحـد والعشرـــين ونحن في المهجر وعـاصرنـا الكومبيوتر والايميـل والتلفون المحمول وأخيراً الفيس بوك. وفِي أحـد الأيـام وأثنـاء تصـفّحي للفيس بوك جاء أمامي اســم "حكمت الشــعرباف" خال عادل. طلبتُ صــداقته على الفيس ووافق عليها. ســؤالٌ مُلحٌّ لم أستطع مقاومته وهو ما الذي حصل لعادل؟ ورغم رغبتي بالسؤال إلّا أنّني كنت متردداً لاعتقادي من أنني ســوف أنكأ جروحاً لم ولن تتعافى. مع ذلك عَرفت نفسيــ على حكمت وســألته كتابيّاً عن طريق المســنجر (الفيس بوك) عن عادل؟ كان جوابه مقتضــباً ومباشراً وقصيراً ومؤلماً ومحزناً:

"شكرا... دخل عادل المعتقل عام ١٩٨٠ ولَم يظهر له أثر"

رُعبٌ على الأرض وفي السماء

كانت تجارة والدي الأساسية هي استيراد السلع المنزليّة المصنوعة من الكريستال والبورسلين من اليابان وبولونيا والصين وألمانيا وچيكوسلوفاكيا (قبل انفصالها الى دولتين). نشتري من هذه الدول من خلال ممثلي الشركات في بغداد أو من خلال وكلائهم العراقيين.

كان والدي يسافر أحياناً لهذه البلدان ويزور المصانع ويتسوّق من أفضل وآخر منتجاتهم التي لم يستوردها أحد بعد. وبعد وفاته المبكرة رحمه الله في صيف عام 1969 كان لزاما عليَّ أن ألعب الدور نفسه. ففي شهر أيار من عام 1970 قررت الذهاب الى

جيكوسلوفاكيا لعقد صفقات الاستيراد ولم يتجاوز عمري آنذاك الثالثة والعشرين عاماً. زرتُ في اليوم الأول مصنع كرستال نزبور خارج مدينة براغ وفي اليوم التالي زرتُ مكتب بيع أواني الطعام المصنوعة من البورسلين الفاخر في وسط مدينة براغ الجميلة. كل ذلك ضمن مواعيد تجاريّة محددة مسبقاً.

أخبرني بعض الأصدقاء أنّه في مقهى اوروبا عند مدخل فندق اوروبا الكبير (Europa Grand Hotel) في شارع فاسلافسكي ناميساي الرئيسي- يلتقي العديد من الطلبة العراقيين المقيمين في براغ. ذهبت في اليوم الثالث الى هناك والتقيت بأحد العراقيين ثم جاء الثاني والثالث الى أن أصبح على طاولتنا ما يقرب من الستة أشخاص. كلهم طلاب ومخضرمون ولهم مدة طويلة هناك، ويبدو على الجميع أنّهم طلابٌ بالاسم فقط.

أنا كزائرٍ وكتاجرٍ فرشتُ لهم الوليمة بالكامل من مشروبات ومأكولات وما لذَّ وطاب. وأخذنا الحديث هنا وهناك الى أن سألني أحدهم ما إذا كان حقا ما نسمعه من أنَّ الناس يقفون في طوابير ويتدافعون للحصول على طبقة البيض او الدجاج المستورد. قلت لهم نعم ذلك حقيقة واقعة. وتحدثنا عن الأوضاع الاقتصاديَّة باعتباري تاجراً و"ابن سوق". لم نتكلّم بالسياسة او طبيعة السلطة قط. لم يأتِ اسم حزب البعث او البكر او صدام في المحادثة إطلاقا. المهم نهاية الجلسة دفعت الحساب وأخذت تاكسي الى فندق الكونتيننتال.

التقيتُ في اليوم الرابع بمحمد وهو شـــاب كرَّادي (من الكرَّادة الشرقيَّة) من عائلة ذياب مشكور وهم عائلة قصاصيب (جزّارين) معروفة في منطقة البو شـجاع كرَّادة داخل. محمد كان ضـابطا في الجيش العراقي منذ عام 1963 حينما حكم البعث أول مرّة. وعليه كان ضـــابطاً بعثيَّاً حينما حدثت حركة 17 تموز عام 1968، وسـيطر البعث من جديد على السـلطة. تمَّ اعتقال محمد لاحقاً لأنَّه بعثي من جماعة القيادة القطريَّة (جماعة ســوريا). اعتقل وحقق معه في سـجن رقم واحد في معسـكر الرشـيد مما أدى الى كسر في ظهره. بعد أن أفرج عنه ذهب الى سوريا التي أرسلته على حســابها للعلاج في براغ. سرد لي قصَّـــته ونحن نتجوّل في مدينة براغ القديمة. أحســـســـتُ بالاطمئنان وارتحتُ إليه كثيرا. بقينا نتجوّل في شـوارع براغ المتميزة بمعمار القرون الوسـطى المُطعّم بـألوان متنـاســـقـة زاهيـة برَّاقـة كـألوان المينـا في المجوهرات الهنديَّة. وصـلنا الى الميدان الرئيس- الذي به سـاعة فلكيَّة قديمة (Astronomical Clock) في أعلى برج مشـــيّد لهذا الغرض منذ القرن الخامس عشرـــ. وكلّما تدقّ الســـاعة تنفتح نوافذ البرج لتتحرّك التماثيل داخل نافذتين في أعلى البرج على أنغام موســيقى خاصـة بها. منظر جميل جدّاً ومحطة رئيسـة لسـيَّاح مدينة براغ التاريخيّة المعروفة بجسورها وأبنيتها القديمة التي تجعل المدينة برمتها وكأنّها متحف تاريخي.

بعد ذلك ونحن نتجول في إحدى الشـوارع الرئيسـة برز أمامنا على الجانب الآخر ثلاثة أشـــخاص في ملابس رســميَّة (بدلة ورباط) وشـوارب سـود، فيما كان يُسـمّى في حينها شـوارب ٨ شـباط تيمناً بانقلاب 8 شـباط الدموي عام 1963، وتقليداً لشــوارب صــدام

حسـين. أشروا على صـاحبي محمد فذهب إليهم. وبقيَ يتحدّث معهم نحو الخمس دقائق وكانوا يؤشرون عليَّ بين الحين والحين. جاء لي مرتبكاً بعد أن تركوه، وقال: مع من كنت في مقهى أوروبا البارحة؟ قلتُ مع مجموعة من العراقيين لا أعرفهم شخصيَّاً. هل تحدثتم بالسـياسـة؟ قلت كلا. هل تحدثت عن أزمة الدجاج والبيض؟ قلتُ نعم. قال كان معكم من يكتب تقارير للمخابرات العراقيَّـة. وهؤلاء الـذين رأيتهم هم موظفون في الملحقيَّـة العسكريَّة وأعرفهم منذ كنت ضابطاً. كانوا يريدون معرفة اسمك بالكامل وماذا تفعل هنا وأين تسـكن و.... و...؟. قلت لهم كل الذي أعرفه ان اسـمه محمد وأبوه تاجر غني، وأنّك هنا لغرض التجارة والسـياحة والبنات والشرب والمسـخرة!، قلتُ له وكيف عرفوني وأنا في الشـارع؟ قال إنّك الزائر الوحيد هذه الأيام وعن طريق البدلة القهوائيَّة المميزة التي تلبسها كل يوم في براغ.

طارت النشـعة وحلَّ محلُها قلقٌ وخوفٌ ورعبٌ وعودة للوطن لا تعرف نتائجها. اليوم التالي كان اليوم الخامس وهو يوم سـفر العودة على الخطوط الجويَّة الجيكوسـلوفاكيّة التي كانت تصـل بغداد عبر بيروت. لم يكن في الطائرة أكثر من عشرة ركاب من براغ الى بيروت. أما من بيروت الى بغداد فكنت أنا وامرأة كبيرة في السن فقط. كان الطيران في ليلة مظلمة وكانت الطائرة فارغة وموحشـة جداً. الخوف والرعب من القادم المجهول نتيجة الوشـاية كان أكثر رهبةً من محرّكات الطائرة ومطبّاتها الهوائيَّة التي لم تتوقف لحين الوصـول الى بغداد. ولم يكنْ ما يشـغل تفكيري سـوى، هل سـتنتظرني المخابرات في المطار؟ وإذا سـألوني ماذا سـأقول لهم؟ هل هناك تسـجيل صـوتي للحديث؟ وهل... وهل.....؟ كانت

من أطول الرحلات وأكثرها رُعباً في السـماء. وصـلنا مطار بغداد في حدود السـاعة التاسـعة مسـاءً. ومررتُ من خلال ضـابط السـفر وموظف الجمارك من دون سـؤال يذكر او اسـتجواب. وصـلت البيت فرحاً مشـتاقا لأكل الوالدة اللذيذ وكنت متعباً جدّاً فذهبتُ الى النوم في حدود الساعة الحادية عشرة مساءً.

أيقظتني والدتي وأنا في عزِّ النوم. لم أستطع أن أفتح عيوني لشدة الإرهاق من السـفر. قالت اسـتيقظ، هناك من كان يطرّق الباب مرارا، وحينما فتحت الباب له سـأل عنك. إنَّه شـخص غريب ومخيف والساعة هي الخامسة صباحاً. قلتُ حسناً أمي أدخليه في غرفة الضيوف وسأنزل حالاً. وضعت الروب على كتفي ورشقت بعض الماء في وجهي اسـتعداداً للمجهول الذي سـيجلبه زائر الصـباح المشـؤوم، ولم يأتِ على بالي سـوى ما حدث في براغ. دخلت الغرفة وإذا به "سعدي" صديق لصديق الطفولة "رياض الطحّان". معرفتي به لا تتجاوز سـوى أن رياض قد جاء به في إحدى سـفراتنا الى الصـدور. أعرف أخاه "طالب" الذي كان من دورتنا في الثانويَّة الشرقيَّة. والاثنان هما أبناء عم حسـن العامري وأخوة زوجته، الذي كان عضـوا في القيادة القطريَّة لحزب البعث ووزير التجارة آنـذاك. شريط سريع مرَّ في ذاكرتي كي أفهم معنى هذه الزيارة الرهيبة.

سـعدي كان في منتهى الأناقة يلبس بنطلوناً وسـترةً ورباطاً، وكأنّه اثناء الدوام أو ذاهبٌ للدوام في إحدى دوائر الدولة التي تتطلب شـياكة عالية. كان سـلامه معي مقتضـباً، وكأنّه في مهمة رسـميَّة

وليس في زيارة وديَّة لصـديق. رحّبتُ به وجلسـت كي يجلس، إلا أنّه ظل واقفاً مسـيطرا ومتحكما في الموقف، وبدأ يتحرّك أمامي رواحاً ومجيئاً كبندول سـاعة حائط قديمة، متصـنّعاً لحركات متعمّدة ولعدة مرات كي يُريني أنّه يحمل مسـدسـاً تحت سـترته. قلت في نفسي_ إنّه ربما جاء بسـبب ما حدث في براغ. وبما أنّه يحمل مسـدسـاً واسـتطاع أن يعرف مسـكني علماً أنّه ليس من محلتنا ولم يزرني سابقاً أبداً، إذن إنّه يعمل في الأمن او المخابرات او مرافق لنسـيبه حسـن العامري. وأخيرا تكلّم عن سـبب زيارته وقال بشـكلٍ جديٍّ وبوجهٍ عبوسٍ يحمل التهديد بطريقة قوله: آني آسـف جئتك في وقت غير مناسـب ولكنّي بحاجة الى ان اسـتدين منك 500 دينار. (الدينار العراقي كان يسـاوي 3.5 دولار آنذاك أي ما يسـاوي 1,750 دولار). ارتحت لذلك كثيراً لأنّه ليس أسوأ الاحتمالات. قلت له: سعدي لقد كنتُ مسافراً خارج العراق ووصـلت قبل نحو خمس سـاعات وليس لديَّ أي مبلغ الآن. إذا أمكن تعطيني عدة أيام لأرى ما أسـتطيع تدبيره. ظل يفكر ويروح ويجيء في الغرفة وأنا لا أسـتطيع ان أتنفّس بسـهولة. تعمّد أن يُريني المسـدس عدّة مرّات وهو يتحرّك أمامي للعلم والتحذير. قال متردداً: حسـناً إلا أنّني بحاجة ماسّـة للمبلغ ولا بدَّ لي من الحصول عليه.

لم أصدق أنّه تركني. كانت أمي ماتزال في الطابق الأسفل لتسمع ما يحدث. سـألتني ما هو الموضـوع؟ قلت لها صـديق غبي لا تحملي هَمْ وتصـبحين على خير. تقلّبت في الفراش مفكراً: هـل هناك ترابط بينه وبين ما حدث في براغ؟ هل أنّه متفق مع أخيه طالب؟ كيف سـأتصرّف؟ ومن حسـن الحظ كنت متعباً جداً فاسـتغرقت

في نوم قلق في بدايته ولكنّه تحول الى سبات عميق وجه الصباح، ولم اســتيقظ إلا قبيل الظهر بقليل. طفرتُ من الفراش مفزوعاً كأنّي قد فات عليَّ موعد مهم. هممت باستعجال وذهبت حالاً الى الصـديق رياض الطحّان. شرحت له الموضـوع بمنتهى العصـبيَّة وقلت له: أنت الذي عرّفتني عليه وأنت الذي يجب أن تخلّصـني منه. رياض من النوع البارد (دهري بالعراقي) إلّا أنه صـديق يُعتمد عليه. قال لا عليك اعتبر الموضـوع منتهياً. قلت له، ولكن كيف؟ لقد دخل بيتي واســتفزّني وهدّدني ويريد أن يبتزّني. قال لا عليك أعطني حتى المســاء وأكون قد وصـلت الى نتيجة. تركته وذهبت الى ســوق الشــورجة لممارســة عملنا. جاءني رياض في المســاء وخرجنا معاً الى مقهى الحدباء (زناد) على شــارع أبي نواس الذي نرتاده عادةً كلَّ خميس كملتقى يتخللها لعب الدومينو والطاولة. قال لي إنسَ، الموضــوع انتهى. لقد التقيتُ بأخيه الأكبر طالب وأخبرته بالموضـوع. تأسـف طالب كثيراً لما حدث، وقال إنَّ أخاه قد مرَّغ سـمعتهم في التراب، وأنه سـيكون له حسـاب معه. وأكد عليَّ عـدَة مرَات قـائلاً: ارجو أن تخبر محمـد: أنّـه على الرغم من الخلاف الســياسي بيننا والصـراع العنيف الذي خضــناهُ عام 1963/1962، فإنَّ سعدي لن يصل إليه مرّة أخرى. وهذا ما كان، ولكن الرعب مازال في الصحو والمنام وفي كل مكان. معذرة فهناك ذكريات مؤلمة حتى فيما يُسمّى أيّام الزمن الجميل.

الجامعة المستنصريَّة

عاشقة الزهور

كعادتي كل يوم أزور رئيس قسم الإدارة في الجامعة المستنصريَّة، حينما لا يكون لديّ حصـــة دراســـيَّة. أتحدث فيها قليلاً مع سكرتاريّة القسم متمثلة بالآنسة هاسميك آرتين* والآنسة هناء خليل، قبل الدخول إلى مكتب رئيس القســم للتباحث معه في العديد من الأمور، ذات الاهتمام المشــترك، ومنها نشــاط لجان القســم الذي هو رئيســها بحكم منصــبه وأنا عضــوها ومقررها بالانتخاب. من بين أهم تلك اللجان لجنة المناهج الدراســيَّة ولجنة تطوير المكتبة ومركز التدريب والتطوير الإداري للقطاع العام. وكانت ســكرتاريّة القســم تســاعدنا كثيراً في طباعة محاضر الجلســات ومقترحات تطوير المناهج والمراســلات مع العمادة ورئاســة الجامعة. كانت كُلّيَة الإدارة والاقتصــاد في النصــف الثاني من ســبعينات القرن المنصرــم، وبالأخص قســم الإدارة يعمل

كخلية نحل، حيث نظمنا دورتين تـدريبيتين لإدارة التســويق الحـديث، لموظفي القطاع العام التجاري، التي حققت نجاحاً باهراً واستحسانا من قبل المشاركين.

كذلك نظمنا ندوة ثقافية في القاعة الكبرى للاحتفالات، قدمتُ فيهـا محـاضرة عن أهميـة التســويق والإعلان التجـاري للـدول النامية: العراق أنموذجا. شــارك وحاور فيها معي زميل مصـري ومندوب من الشـركة العامة للإعلان والتوزيـع، وحضرهـا جميع طلبة الصف الثاني إدارة الأعمال وعميد الكلية ورئيس قسـم إدارة الأعمال ومعظم أعضاء الهيئة التدريسيَّة. هنَّأني العميد الذي كان منبهراً لنشـاط لا سـابقة له في الجامعة، وقال لي: أسـتاذ محمد، يجب أن نبعثك بأقرب فرصة لإكمال شهادة الدكتوراه**.

ولستُ مبالغاً إذا قلتُ إنَّ سكرتاريّة القسم كانت تؤدي جُهداً كبيراً في إسناد جميع نشاطات القسم، ولا سيما في موسم الامتحانات، إذ يطبعون أسـئلة الامتحانات بكل أمانة وإخلاص. وبدلاً من أن يحصل مثل هؤلاء الموظفين على الترقية وكتب الشكر والتقدير، يحصــل العكس في معظم الأحيان. ففي يوم مُبارك من أيام مجد الكفاءة الإدارية، ومقارعة الفسـاد ومنع سرقة المال العام، في أحد هذه الأيام ارتقت قدرات وإمكانات الحرس الجامعي بتركيزها غير المعتاد وبحرصها الشديد على الممتلكات العامة، من كبس سرقة كانت تتم كل يوم أمام مرأى الطلبة والموظفين، بلا خوف ولا خجل! نعم اسـتطاع الحرس الجامعي من اكتشـاف السـبب الحقيقي وراء النقص المسـتمر بمعدل سـتة ورود مع أغصـانها

وأوراقها الخضراء أسبوعيّاً من حديقة الجامعة. ففي صبيحة يوم ربيعي مشرق، لاحظ أحد الحرس المقدامين أن إحدى الآنسات الجميلات المجهزة بأدوات جارحة حادة متمثلة بمقصٍ مشحوذٍ من الجانبين، قطعتْ ست أغصان متوّجة بورود حمراء تزدهر بها حدائق الجامعة المستنصريَّة بأعداد لا تعد ولا تحصى. تتبعها الحارس الفطن من بُعد كي لا تلاحظ الآنسة التي تعشق الزهور، أنه يُلاحقها. وأخيراً وصلت الى مكتبها، وعرف الحارس مركز عملياتها السري للغاية!

رجع هذا الحارس الحريص على المال العام إلى رئيس الحرس وأخبره بالواقعة، واقعة قطع زهور الجامعة وسرقتها، ونقلها من حدائق الجامعة إلى مزهرتين زجاجيتين أحداهما على مكتب السكرتيرة هاسميك والأخرى لتزيين مكتب رئيس القسم. رفع رئيس الحرس والحارس الأمين على زهور المسلمين، رفع تقريرا تفصيليا بعنوان:

م: <u>قاطعة الزهور</u>

كان الأمر الإداري مطالعة قانونية وإدارية مُذهلة ومُقنعة، لم تترك مجالاً للشك لدى رئاسة الجامعة المستنصريَّة، التي بدورها رأت من الضرورة والحكمة مفاتحة عميد كُلْيَة الإدارة والاقتصاد، الذي بدوره لم يجد سبباً مقنعاً في مجادلة كتاب قادم من الباب العالي لأعلى سلطة في الجامعة علميّاً وإداريّاً وأخلاقيّاً. بارك الكتاب الجامعي وبعثه إلى رئيس قسم الإدارة مشفوعاً بوشم

متعـارف عليـه، "للاطّلاع واتخـاذ مـا يلزم رجـاءً". لم يكن رئيس القســـم شـــخصـــاً نمطيّاً في التعامل، لذا طلب من الســـكرتيرة المتفانية في عملها "هاســـميك" التوقف عن قطف الثمار من بُستان المستنصر. بالله والحاكم بأمره، إلّا أنّه كان يمتلك شجاعة متميزة، ولم يتخذ إجراءً إداريّاً بحقها، مناقضـــاً بذلك لتوصـــية فرمان حُكّام الزمان، ولم "يتخذ ما يلزم". بعد ذلك تغيّر اســـم الآنسة وأصبح الكل يناديها بـ "قاطعة الزهور" بدلاً من هاسميك، وتعرّض كتاب رئاســـة الجامعة الى الســـخرية والامتعاض في آن واحد.

---

* لاحقاً زوجتي ورفيقة دربي وأم ابنائي.

** لم يحصل ترشيحي لأي بعثة او زمالة، ورفض طلبي بالحصول على إجازة دراسيَّة من دون راتب لدراسة الدكتوراه لعدم انتسابي لحزب البعث.

صراعٌ بين الكرامة والواجب

لم يكن شــتاء العام الدراسي 1978/ 1979 من الأعوام التي يمكن أن يطويها الزمن وتخلد الى النســيان بســهولة. كان شــتاءً قاســياً ببرودته ومكفهراً بســمائه وممطراً نديَّاً من دون انقطاع. وفي هذا الجو المليء بالكآبة، توالت الأحداث يوماً بعد يوم لتضـيق الآفاق من حولنا وتؤطرنا في زوايا ضــيقة لا نســتطيع الحراك فيها. اقتصــاديًّا تضــاعفت موارد العراق المالية نتيجة تأميم شركات النفط الأجنبيّة، إلّا أن المســتهلك كان يعاني من شــحٍّ المواد الاســتهلاكية مثل البيض والدجاج والمشرــوبات الغازية وغيرها. ســياســيًّاً أخذ الســيد النائب صــدام حســين يُعزّز مكانته ويبســط ســطوته على الســلطة خاصــة بعد فشــل حركة ناظم كزار. الجبهة بين الشــيوعيين وحزب البعث وصــلت الى طريق مســدود لا نهاية له ســوى تصــفية الحزب الشــيوعي، والضــغط على أعضــائه، أما الانتساب الى حزب البعث او تحمّل النتائج القاسية.

ضــمن هذه الظروف جاءت قصّــة شــاكر، وهو أحد طلابي في الجامعة المســتنصرــيَّة. ابتدأت بإصــابة والده بمرضٍ عضــالٍ لم يســتطع النفاذ منه لقلة الإمكانيات الماليَّة، والذي أدى في النهاية لوفاته قبل الأوان بكثير. وبطبيعة الحال أثر ذلك في وضــعهم المعيشيــ، بعد فقدان معيلهم الوحيد. لقد ترك الوالد للعائلة دكاناً صغيراً وزوجة أب والعديد من الأبناء منهم أخوةٌ لشاكر. ولما كان الدكان هو مصــدر معيشــتهم ولا بدَّ من شــخص يُديره، قرّر شــاكر الانتقال الى الدراســات المســائيَّة في الجامعة، وتعلّم

المصــلحة قبل فوات الأوان. ولكن في الوقت نفســه كان شــاكر متورّطاً ســياســيّاً، وفي وضــع محرج جدّاً ويمكن أن يُعتقل في اية لحظة. ماذا يفعل، لا يدري؟ هل يبقى على انتمائه الحزبي ويناضل في سـبيل الوطن؟ أم يترك السـياسـة كليّاً ويهتمُّ برعاية زوجة أبيه وأخوته من أبيه؟، هل يترك الجامعة ويعمل في الدكان ليل نهار، كي يكسب القوت الذي كان يكسبه والده قبل وفاته أم يبحث عن وظيفة يستعين بها؟

كلها أمور محيّرة لا يســتطيع الإجابة عنها بمفرده. يكاد رأســه ينفجر من التفكير. المنظمـة الحزبيَّـة للســلطـة في منطقتهم السـكنيَّة شـددت الحصـار عليه بعد اعترافات عزيز الحاج المُذلة. آمالهم في هذه القيادة قد خابت وتدهورت. أفكار كثيرة تدور في تفكير شـاكر "القضـية، القضـية أهم من الأشـخاص. لا أدري، لا أدري، لا أدري. إنّهم يضــغطون ويريـدون منّي اعترافـات وتنكّر وبراءة من كلِّ شيء أؤمن به. لا أستطيع أن أقوم بذلك. مالي وعزيز الحاج المتخاذل. دعني أتذكر قدوتي الشــهداء ســلام عادل وابو العيس والعبلي وغيرهم الكثير، قافلة الشــهداء الذين ضــحوا بأرواحهم من أجل القضيَّة".

ويســتمر بالتفكير "ولكن أخوتي وزوجة أبي ودراســتي ومســتقبلي، أليســوا قضــية؟، ما العمل؟ أضــحي بالقضــية من أجل أخوتي أم أضحي بأخوتي من أجل القضية؟ رأسي يكاد ينفجر والضغط يزداد وهددوني بالاعتقال إذا لم أطاوعهم. أريد حلّاً، أريد مُعيناً، أريد

من يحميني ويســـاعدني. ولكن من يســـاعد (شروكي هلكان*) من مدينة الثورة يتيم وذو أفكار هدامة!".

وظلَّ شـاكر يُقلّب الأمور "من يسـتطيع مسـاعدتي من الأقرباء أو الأصـــدقاء؟ من يريد أن يتورّط بموضـــوع كهذا؟ مَنْ مِنْ زملائي يســـتطيع أن ينقـذني؟ ولكنّهم لا يعرفون بـانتمـائي، وإذا عرفوا فسوف يضغطون عليَّ في الجامعة والمحلة. وأخيراً جاءته الفكرة ربما أحد الأساتذة يستطيع أن يساعدني. ولكن معظمهم مصريّون يخافون من ظلّهم. ومن بَقِيَ إما جزءٌ من الســـلطة او ضـــعيفٌ لا يحل ولا يربط. ولم يبقَ ســوى شـخص واحد. نعم إنّه هو. ليس من الســـلطـة ولكنـه قوي، ولا أدري سرّ قوتـه. يحترمـه الجميع وشاب وعسى أن يتفهم وضعي وقضيتي. وإذا رفض مساعدتي فإنّه لن يشي- بي أو يضرّ-ني بأيِّ شكلٍ من الأشكال. كنت طالباً عنده في الســـنة الثانية وأنا طالب عنده في الســـنة الثالثة. إذن قررت. سأحدثه غداً".

اسـتوقفني شـاكر بعد خروجي من الصـف بعد المحاضرة، وطلب أن يحـدثني على انفراد. كان خائفاً ومرتبكاً، قلتُ تفضّـــل، قال الموضـوع طويل ومعقّد، قلتُ إذن ألقاك بعد انتهاء آخر محاضرة في السـاعة الثامنة والنصـف مساءً. طلبتُ أن أوصـله بسـيارتي الى بيته أو مكان قريب ونتحدث في الطريق. حكى لي الموضـــوع بما أنزل وبالتفصـيل. اسـتمعتُ إليه جيداً، من دون تعليق او تعاطف او اسـتنكار. قال لي إنّه عضـو في الحزب الشـيوعي- القيادة العامة. وإنَّ هناك اعترافات عليه، ومن ثم منظمة الســـلطة في منطقته

يريدون منه الاعتراف والتبرئة وإلّا سيتم اعتقاله. سألته ماذا تنوي أن تعمل؟ قال: لا أريد أن اعترف ولا أريد أن أدخل السجن، لأنّني لا أريد أن أخسر كرامتي ولا أريد أن أتخلى عن أخوتي. ثم فاجأته بسؤال آخر، لماذا لم يعتقلوك؟ ولماذا يمنحونك هذه الفرصة في الاختيار؟ هذا السؤال جعله يفكر مليّاً ليقول لي: بصراحة إنّنا كحركة لا نمثل تهديداً حقيقيّاً على حزب البعث، وانّما نمثّل تهديداً للحزب الشيوعي - اللجنة المركزيَّة، وهو ما يحسبون له ألف حساب. ثم سألته لماذا اخترتني لهذا الموضوع، فأنا لستُ مع السلطة كي أساعدك ولستُ من حملة أفكارك كي أتعاطف معك؟ وكان جوابه: أعلم ذلك أستاذ، ولهذا السبب اخترتُ الحديث معك من دون الآخرين.

ذهبتُ بتفكيري بعيداً وأنا أستمع الى شاكر. هل أرسله البعثيّون لاختباري؟ هل هناك نيَّة لاعتقالي، هل يشكّون من أنّني منتمٍ لحزب معين؟ كلّ هذه التساؤلات وردت في ذهني، لذلك قررت أن أكون متحفّظاً فيما أقول، ولا أعرض نفسي لمخاطر جسيمة، ولكن بالوقت نفسه على افتراض أنَّ قصّة شاكر قصّة حقيقيَّة، إذن عليَّ أن أساعده. وقبل الوصول الى ساحة النهضة كي يكمل شاكر من هناك مواصلاته الى مدينة الثورة أعطيته الحل. قلتُ له: عليك أن تسمعني وتطبّق بالحرف الواحد ما أوصيك به. اذهب الى زميلك محمد حسن، وهو عضو في اللجنة الاتحادية للاتحاد الوطني وهو من الطلاب الجيدين الذين يحترمون أنفسهم ولا يستغلون منصبهم، وقل له إنني بعثتك إليه، وأن الأستاذ واثق من أنّك ستساعدني، ثم اشرح له الموضوع كما شرحته لي وبالتفصيل من دون خوف أو تردد.

لم يبدُ على وجه شــاكر أيّ نوعٍ من الاقتناع بهذا المقترح، إلّا أنّه لم يكن لديه حلٌّ آخر. وفعلا ذهب وطرح الموضــوع على زميله الاتحادي الذي كانت تقاسـيم وجهه تتغيّر باسـتمرار الكلام. وبعد نقاش وحوار وأخذ ورد ومن دون إهانة او اســتفزاز، ظهرت عليه ملامح اسـتغراب وتعجّب، وكان لسـان حاله يقول: كيف وضـعنا الأســتاذ بهذا الموقف، وثق بنا وأحرجنا. اعتبر الطالب الاتحادي ذلك بمثابة اعتزاز واعتراف منّي بقدرته القياديّة على إدارة شـؤون زملائه الطلبة في محنهم. وكانت المفاجأة حينما قال الاتحادي لزميله: اعتبر الموضـوع منتهيّاً، دعنا نذهب الى الأسـتاذ نطمئنه ونشكره على الثقة التي منحنا إيَّاها.

جاءني شـاكر في اليوم التالي وشـكرني مرّة أخرى، وقال لي إنَّ لديه مشـكلة أخرى، سـألته ماهي قال لي إني أخفيت عنك وعن زميلي الاتحادي موضــوع زميلتي ورفيقتي في النشــاط الســياسي التي سـيكون من الصعب عليَّ أن أقنعها بترك العمل السـياسي لأنّها في حقيقة الأمر مؤمنة فيه أكثر منّي. كذلك إن تنظيمها لم يُكتشــف بعد، وبذلك فإنّها ما زالت تمارس العمل السـياسي. ولكن ضـمن علاقتي بها، فإنَّ أي شيء يحدث لها ســوف أتهم فيه من دون شــك. فما العمل؟ وما عســاي أن أقول لها أو أقنعها به؟ قلتُ له هذا أمر متروك لك ولها، ومن الصــعب عليَّ التدخل فيه. قال: شــكراً أســتاذ أنقذتني وأنقذت عائلتي، من دون ان يمسَّ كرامتي شيء او يجعلني أتخلى عن الواجب، وفيما يخص زميلتي، سأذهب اليها وأقول لها بما حدث وأطلب منها إما أن تترك العمل السياسي في هذه المرحلة الصعبة التي تكلّف الإنسان حياته من دون مردود

يُذكر، وأن نبني عائلة مع زوجة أبي وأخوتي، أو نفترق قبل فوات الأوان.

---

* شروكي هلكان: كُنْيَة تُســتخدم لأهل جنوب العراق بشــكل عام تنكيلاً وليس محبةً، هلكان بمعنى تعبان وضعيف ولا مال له.

سيرة طلبة جامعيين
عباس ومحمد وتوماس أنموذجاً

من أهم ميزات التحصـــيل الجـامعي أنهـا تجمع الطلبـة من كل المحافظات في صف واحد. ومن بين هؤلاء ثلاثة طلاب الأول من كربلاء والثاني من تكريت والثالث من بغداد. اجتمعوا في الجامعة المسـتنصريَّة لغرض التحصـيل العلمي وفي صـف واحد. طبعاً من المؤكـد أن الخلفيَّـة البيئيَّـة والتربيـة العـائليَّـة تؤثر في الســلوك الفردي وتميزه نوعـاً مـا. هؤلاء الثلاثـة تفـاعلـت معهم أو تفـاعلوا معي من خلال دراما فريدة من نوعها مررت بها شـــخصـــياً معهم، وإليكم القصة باختصار:

جاءني الطالب عباس ما شـاء الله، وبشـكل مقصـود كي يحدثني في أمر مهم. قال لي إذا تسـمح لي أسـتاذ محمد أود الحديث معك في أمر خاص. سـألته أين يسـكن؟ قال في البتاويين، قلت حسـناً أنت في طريقي، انتظرك بعد انتهاء الدوام كي نرحل معاً. عباس كان أحد الطلبة الذين أعرفهم جيدا لأنّه كان أحد طلبتي في الصـــف الثاني صـــباحي وفِي الســـنة اللاحقة في الصـــف الثالث حيث انتقل الى الدراسات المسائيّة بعد توظفه.

وفي طريقنا ســألته ما الذي تريد أن تحدثني عنه؟ قال لي: أســتاذ أترجاك أن تترك محمد التكريتي لحاله ولا تعطه فرصة كي يؤذيك. قلت: ولماذا يؤذيني؟ قال: أعطاك البحث المطلوب متأخّراً ولم تقبله منه، وبعد خروجك من الصـف، بدأ بالتحدث عنك بسـوء

وبالتوعد وأنّك شيوعي وعجمي، وأنّك كذا وكذا وكذا، وأنّه سوف يُلقنك درساً لا تنساه. استمعت لهذا الحديث المذهل من تحدي طالب جامعي لأستاذه. قلت لعباس إنَّ هناك حداً أدنى للمتطلبات العلميَّة وهو يعرف الموعد لتقديم البحث الذي تحدثت عن أهميته عدّة مرّات، وأهمية أن يُقدم في الموعد المحدد. وما عليه إلّا أن يلوم نفسه. بعد أن استمع لي عباس بهدوء، بدأ يتحدث معي كأنَّه أب أو أخ كبير، وقال لي: أستاذ أنت شخص مثالي وتعيش في عالم آخر. محمد يعلم أنّك لستَ بعثيَّاً ولا سندَ لك وهو تكريتي وبعثي وضابط في الجيش، والمعادلة غير متوازنة. أترجاك أستاذ أن تكون مرناً بدل من أن تكون ضحية لموضوع تافه. شكرتُ عباس لتحذيري، وقلتُ له متى كان الحفاظ على المستوى العلمي لخريجي جامعاتنا تافها، ولا يستحق التضحية؟ قلتُ هذا القول وأنا أعلم من أنّي ربما أتَأرْجَحُ على حبل سلكي رفيع، فوق مسبح كونكيريتي خالٍ من الماء. كان ذلك في عام 1978 حينما كانت سيطرة الدولة والحزب في أوجها وكان معظم الأساتذة والطلاب بشكل أو بآخر قد أعلنوا ولاءهم لحزب البعث.

أخذت الأفكار المرعبة تُراودني بعد أن ودعتُ عباس. ولكن ما العمل؟ وبعد تفكير وتفكير توصلت الى نتيجة أن ما حدث قد حدث ومن الصعب إصلاحه. ولا يمكن أن أعتذر أو أتنازل خاصة لما كان متوفراً لديَّ من كبرياء وعزٍّ لمنزلتي كأستاذ جامعي وما تربّيتُ وتمرّستُ عليه ودفعتُ ثمناً غالياً له في المراحل الأولى من شبابي. وبعد ذلك بأسبوع أو أسبوعين جاءني توماس وهو مراقب الصف الذي به عباس ما شاء الله ومحمد التكريتي، وقال لي: أستاذ ممكن أن أتحدث معك بموضوع شخصي، قلتُ: خيراً تعال

معي لغرفة الأساتذة. جلسنا في زاوية كي لا يسمعنا أحد وقلتُ له تفضّل توماس ما هو الموضوع؟، قال لي أستاذ هذا محمد التكريتي اعتدى عليَّ وأهانني وضربني أمام الطلاب والطالبات، وأريدك أن تأخذ حقي منه. قلتُ له: ولكنّك مراقب الصف ومُعيّن من قبل الاتحاد، فلماذا لا تذهب إليهم؟ قال لي: "صُدك تحجي أستاذ!، هذا تكريتي يا اتحاد الي يوكف بوجهه". قلت حسناً اذهب الى مساعد العميد لشؤون الطلبة. قال: أستاذ الكل يخاف منه. قلت: وما الذي أستطيع أن أفعله أنا، ولماذا اخترتني بالذات؟ أجابني بأنّه شاهدني كيف رفضت أخذ البحث منه وأنّني لا أخاف منه. قلت في نفسي من أنّك لا تعلم من أنّني لا أنام الليل منذ ذلك الموقف البطولي الذي ورّطتُ نفسي به.

مرّت الأيام ولاحظت تغيّب محمد عن الحضور لفترة ما، فسألت عنه قالوا لي إنَّ والدته مريضة وبحالة خطرة. ذكرني ذلك بخسارة والدتي قبل ذلك بأربعة أعوام. شعرت بالتعاطف معه لما يمرُّ به متمنياً من كلّ قلبي أن يمنح الله والدته الشفاء. وفي يوم ما صادف أن رأيته يمشي أمامي في الممر الرئيس باتجاه بوابة الجامعة المستنصرية. بادرتُ بالسلام عليه وسألته عن صحة والدته، أجابني شكراً أستاذ إنّها في تحسّن مستمر، قلتُ الحمد لله وإن شاء الله تستكمل الشفاء. بدا على محمد الاستغراب من أني أعلم بموضوع والدته وأنّي مهتمٌّ بشؤونه. ونحن في هذا الحديث الإيجابي، سألته هل تعلم ما هو اسمك؟ قال: محمد، قلت: كلا ما هو اسمك؟ أجابني محمد التكريتي. قلتُ له وماذا يعني ذلك لك؟ هل يعطيك لقب التكريتي صلاحيات مطلقة كي تفعل ما تشاء وتهين من تشاء، أم يجعلك تشعر بمسؤولية كبيرة تجاه زملائك

في العمل وفي الجامعة؟ استغرب وارتبك جدّاً من طبيعة السؤال وصلافته. قلتُ له يا محمد إنَّ اسمك يُوحي أنّك جزء مهم من الدولة وعليه فإنَّ الناس عموماً، وزملاءك الطلبة خصوصاً ينظرون الى تصرفاتك ومن خلالها يبنون موقفهم من الدولة، فعليك أن تكون حريصاً أكثر من غيرك لا بل المفروض أن تكون القدوة الحسنة، ألّا تتفق معي على ذلك؟ أجابني بنعم أستاذ، ولكن ما الذي فعلته كي تقول لي ذلك؟ قلتُ جاء لعلمي أنّك اعتديت على زميلك توماس أمام الطالبات وهو شاب مثلك وهو ممثل للاتحاد. هل تعتقد أن ذلك شيئاً كان يجب أن يحدث؟

أحسستُ من أنَّ محمداً شعر بالحرج والخجل وتعهّد لي من أنّه سيصلح الموضوع وأنّه سوف يعتذر من توماس. قلت له مثل ما اعتديت عليه أمام الكل عليك أن تعتذر منه أمام الجميع وأمام زميلاتكم الطالبات على وجه الخصوص. وفعلاً حدث ذلك وأصبح محمد يبتسم لي كلّما رآني وكأنّه يريد أن يشكرني مراراً وتكراراً. حينها بدأت أنا وعباس وتوماس وكل الذين حول محمد يتنفّسون الصعداء. فترة عصيبة مررت بها وحيداً ومرَّ بها العديد من الطلبة والتدريسيين ولم نستطع طلب العون من أحد، ولكنّي اخترت طريقا محفوفا ببعض المخاطر. النتيجة كانت جيدة بامتياز.

الصراع بيننا لم يكن سياسيّاً أو أكاديميّاً بقدر ما كان أخلاقيّاً. إنَّ مخاطرتي بفتح الحوار بهذا الشكل أدت نتائجها لسببين أولهما أن شخصية محمد طيبة من حيث الأساس، إلّا أن البيئة والاندفاع

السياسي أثرت عليه سلباً. والسبب الثاني هو إحساسه بمصداقية وإخلاص كلامي معه ولذلك أخذ به. وفي اعتقادي أن الهيئات التدريسيَّة تقتصر في جهدها على تدريس العلوم فقط وتتجنّب لا بل وتبتعد عن لعب أي دور ثقافي او تربوي. وهذا يشـكل نقصـاً كبيراً في التعليم الثانوي والجامعي. ولا شـكَّ أنّ مشـكلة العراق حالياً هي أخلاقيّة على العموم قبل أن تكون سياسيَّة او دستوريَّة او طائفيَّة، وينطبق عليها قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

إنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ

فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُمْ ذهبُوا

سيرة أستاذ جامعي
د. مهدي العاني انموذجاً

طلب منّي الأستاذ مهدي العاني أن أساعده بمراقبة الطلاب أثناء أدائهم امتحاناً فصليّاً لأنّه صف مدرج وواسع ومن الصعب السيطرة على الطلبة اثناء أدائهم مثل هذا الامتحان. وافقت على ذلك بترحاب. ذهبت معه إلى أحد صفوف السنة الأولى اقتصاد حيث يحاضر فيها الأستاذ مهدي مادة مبادئ الاقتصاد. وزّع بينهم الأسئلة وبدأ الطلاب بالإجابة كالمعتاد. لفت نظري أن أحد الطلاب في منتصف المدرج تقريبا يحاول الغِشّ من زميله المجاور. ذهبتُ اليه وبمنتهى الهدوء طلبتُ منه ان لا يفعل ذلك وأن يركّز نظره على ورقة إجابته فقط. طبعاً أستاذ مهدي لاحظ ذلك من موقعه في مقدمة الصف خلف منصة إلقاء المحاضرة. كان هذا الطالب مصمماً وبشكل واضح وعلني في سعيه للغش عن طريق أخذ المعلومات من زميله المجاور. وبما أنّي لم أكن أستاذه المباشر قررت أن أنبّهه مرّة ثانية بدلاً من إخراجه من الصف.

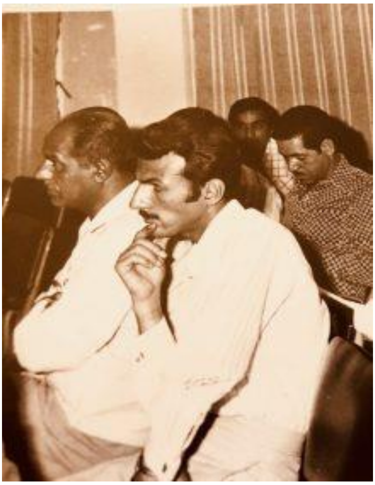

مهدي العاني وعلى يمينه تقي العاني اثناء حضورهم نقاش
رسالتي للحصول على شهادة الماجستير في ادارة الأعمال

لم يفهم الطالب جدية الموضـــوع وتصـــور أنَّ التحذير ســـيبقى تحذيراً. طبعاً في هذه المرحلة ركّز عليه أسـتاذ مهدي، وحينما رَآه يغش للمرة الثالثة طلب منه أن يســـلم ورقته الامتحانية ويترك القاعة. وحينما رفض الطالب ذلك، صـــاحَ عليه أســـتاذ مهدي بأعلى صـــوته بأن يترك الصـــف. نزل الطالب من المدرج وقبل ان يخرج قال بعصبية وأسلوب تهديدي:

"سأذهب إلى الاتحاد اللي يحميني منك واشتكي عليك"

وللأسف أجابه أستاذ مهدي بانفعال حاد:

"اطلع خره عليك وعلى الاتحاد"

قنبلة رماها الطالب المتهور، ردَّ عليه الأستاذ بقنبلة مدوية أتعس منها. كلمات خرجت من فمه من دون تفكير بالعواقب الوخيمة المترتبة على مَسبة "الاتحاد الوطني لطلبة العراق" وهو المنظمة الطلابيَّة الرســميَّة وجناح من الأجنحـة المهمّة لحزب البعث العربي الاشـتراكي، الحزب الحاكم الذي يسـيطر على السـلطة بيدٍ من حديد. كان وقع هاتين القنبلتين في عام 1977 على القاعة التي تحتوي على نحو ثمـانين طـالبا وطـالبـة معظمهم على الأغلـب منتســبون للاتحاد ولحزب البعث، همهمة مدويَّة أعقبها سـكون مخيف وتوجّس مذهل.

نزلتُ من أعلى المدرج إلى أسفله حيث منصة الإلقاء التي يحتمي خلفها الأســتاذ مهدي. قلت له: ماذا فعلت؟ قال: "أكلت خره". قلت: ماذا ستفعل؟ قال: لا أدري. فكرتُ سريعاً وقلت له: حسناً، ليس أمامك سـوى إنكار ما قلت وسـوف أشـهد بذلك. قال: ولكن ســمعني كل الطلاب. أجبته بقولي المشـــهور: "كلّهم بكفٍّ وأنا بكفّ". قال: كيف؟ قلتُ: لا عليك. كل ما أريدك أن تقوله أنّك قلت خره عليك وعلى إليحميك. أخبرته من أني مضـــطرٌ للخروج فوراً كي أرتّب الأمور قبل فوات الأوان. خرجتُ من الصــف أبحث عن زميل وصــديق لديه نفوذ لدى الاتحاد والحزب، الذي نعتمد عليه في الشـــدائد والملمّات. وحينما عثرت عليه أخبرته بمنتهى الصراحة في تفاصيل الموضوع، وقلت له أريد مساعدتك كي ننقذ

مهدي. قال: كيف؟ قلت: دعني أتصرّف معتمداً على إسنادك لي، طبعاً بيني وبين الزميل صداقة متينة عابرة للالتزامات السياسيَّة. وبينما كُنَّا نفكّر كيف سنعالج الموضوع، بدأ طلبة الأستاذ مهدي يخرجون من الصف متجمّعين حول رئيس الاتحاد عبد الكريم، وهو أحد طلابي في السنة السابقة ومن الطلاب المعقولين جدّاً في تصرّفاتهم. كان الطلاب متذمرين جدّاً من أستاذ مهدي لأنّه أهان اتّحادهم.

طلبتُ من عبد الكريم رئيس الاتحاد أن أكلمه، الذي وافق احتراماً وخجلاً. جلسنا أنا وهو وصديق الإسناد في غرفة الأساتذة. أبلغته من أنّي كنتُ مع أستاذ مهدي في القاعة والموضوع ليس كما صوّره له الطلاب. أجابني: أستاذ كلّ طلاب الصف يقولون إن الأستاذ سبَّ الاتحاد. وبعد أخذ ورد أقنعته أن نستدعي الطلاب انفراداً ونستفسر منهم ما حدث. بدأ الطلاب يدخلون تباعاً الواحد بعد الآخر. كنتُ أركّز في أسئلتي هل لاحظوا كم مرّة حذّرت الطالب؟ قالوا نعم، وكيف أنّه تحدى الأستاذ وهدّده؟ قالوا نعم. إلّا أنّي حينما أقول إنّي سمعت أستاذ مهدي يقول "خره عليك وعلى الذي يحميك" يقولون كلا قال: "خره عليك وعلى الاتحاد". بعد ان اكتفينا بالشهود سألت عبد الكريم: ما الذي تريد أن تفعله؟ قال: أنا رئيس الاتحاد ولا يمكن أن أتسامح مع شخص يسبُّ الاتحاد مهما كان ولا بدَّ لي من أن أرفع تقريراً بذلك. قلت له كريم كل الحق معك، وأنا أرى من الضروري أن يعتذر أستاذ مهدي في الصف نفسه وبحضورك أنت شخصيَّاً. أجابني أنّ هذا لا يكفي وأنّ الموضوع قد خرج من يديه وأن كلَّ الطلاب سوف يكتبون التقارير عمّا حدث. قلتُ بصراحة كريم إنَّ عدد الأساتذة العراقيين

هو أقل من الأساتذة المصريين. وأن لدينا مشكلة، إذ إنّ الأساتذة المصريين بالرغم من جدارتهم العلميَّة إلّا أنَّ الامتحانات منفلتة في صفوفهم. ونحن الأساتذة العراقيون لا نسمح بالانفلات والغش. وحينما نمسك أحدهم متلبّساً يُهددنا بالاتحاد. ودعني أسألك هل إنّ الاتحاد فعلا سوف يقف إلى جانب الطالب الغشّاش ضدَّ الأستاذ الذي يحترم مهنته؟ إنّي أرى أنّه بعد أن يعتذر أستاذ مهدي تتحدث أنت بعده وتبلغ الطلبة من أن للأستاذ الحق في محاسبة الطالب الذي يسعى للنجاح عن طريق الغِشّ وأنّه لا يمكن للاتحاد أن يسندَ هذا النوع من الطلاب.

وعلى الرغم من هدوء وعدم كلام صديق الإسناد كثيراً إلّا أنّ وجوده معي قد منحني زخماً وثقة في الكلام. تأمّل عبد الكريم قليلاً ووافق على هذا الحل. تنفّست الصعداء وذهبت لغرفة أساتذة قسم الاقتصاد وأبلغت أستاذ مهدي بالإنجاز العظيم. كان ردُّ فعله غريباً من أنّه لا يريد الاعتذار وأنّه على حق والطالب "داس في بطنه". وعلى الرغم من تقديري واعتزازي بموقفه الشجاع إلّا أنّي توسّلت اليه وأقنعته أن يتقبّل الحل وإلا ستكون النتائج ربما وخيمة ولا يحمد عقباها. اتفقنا على يوم الاعتذار بحضور رئيس الاتحاد. جاءني بعد ذلك عبد الكريم وقال لي إنّ أستاذ مهدي لم يعتذر بشكل واضح. أجبته من أنّي متيقِّن من أنّه ندم على ما قال، ولكنّك لا تريد أن تذلّه أمام طلبته أكثر من ذلك. طبعاً كُنَّا جميعاً نتوجّس الخوف لأيام وأسابيع من أن هذا الحدث سوف يأخذ مجرى آخر.

مرت الأعوام وسألت عنه الزميل حمزة الشمخي فقال لي للأسف الشديد إنَّ الدكتور مهدي صالح العاني الذي أكمل الدكتوراه في الاقتصاد من بولونيا وعاد للوطن لخدمته، قد أغتيل في شهر أيار من عام 2007 وكان من ضحايا العنف الطائفي اللعين الذي شهده العراق بعد عام 2003، والذي شهدته الجامعة المستنصرية بشكل مكثف في الأعوام 2005-2007. كان الأستاذ مهدي صالح العاني من الدفعة الأولى لخرجي ماجستير اقتصاد، جامعة بغداد عام 1975. تعيَّنَ عضواً في الهيئة التدريسيَّة مع مجموعة شابة من دفعته هم فوزي العاني وأوس وتقي العاني وفليح الغري. كانوا مجموعة من المخلصين في عملهم أرادوا خدمة وطنهم، ولكن بدلاً من أن يُحترموا ويُقيّموا، دفعوا ثمناً غالياً وصل حدَّ التضحية القصوى. وللأسف الشديد فإنَّ العلماء والأطباء والمهندسين والمثقفين والاقتصاديين والتكنوقراط دائماً يستهدفون بالفصل او الاعتقال أو القتل كلما حدث تغيير سياسي في العراق. ومن سلم منهم او أفرج عنه اضطر الى مغادرة العراق خوفاً من العقاب الذي لا نهاية له. ولنا في قصة عالم العلماء الفيزيائي ورئيس جامعة بغداد المحترم والمقدّر محليّاً ودوليّاً البروفيسور عبد الجبار عبد الله، وما تعرّض له من سجن وإهانة وتعذيب على أيدي حركة 8 شباط 1963 خير مثال وأنموذج لما يمكن أن يحصل لكل عالم او طبيب او مهندس يعود لوطنه كي يخدمه. ولهذا السبب تجد أفضل الكفاءات العلميَّة العراقيَّة موزعة بين أنحاء دول العالم في إنكلترا وأميركا وأوروبا واليمن وليبيا والجزائر والأردن والدول الأخرى كافة. وفي اعتقادي أنَّ اضطهاد الكفاءات هو من بين الأسباب الرئيسة لتدهور الحضارة والوصول إلى ما نحن عليه اليوم في العراق.

السرقة العلميَّة في الأروقة الجامعيَّة

افتتحت جامعة بغداد قســماً للدراســـات العليا في كلية الإدارة والاقتصاد عام 1972. وكان الأب الروحي لدراسـة ماجسـتير إدارة الأعمال هو الأســتاذ القدير الدكتور خليل الشـمَّاع خريـج جامعة كاليفورنيا- بيركلي، الولايات المتحـدة. وكنـت في انتظـار هـذه الفرصــة لرغبتي الشــديدة في إكمال دراســة الماجســتير في إدارة الأعمال.

مجموعة من أساتذة قسم الإدارة في نادي العلوية عام 1978

قدمت مع مجموعة كبيرة من المتقدمين. ورغم ان تسلسلي كان السادس على دفعتي، إلّا انّني قُبلت كاحتياط لشدة المنافسة. لقد كان الدكتور الشمّاع طموحاً جدّاً، لذلك كان البرنامج الذي أعده في حقيقة الأمر ما هو إلّا برنامج الدكتوراه لجامعة بيركلي. الكتب اميركية والمصادر متعددة واللغة انكليزية، مما أدى الى الانسحاب الفوري للعديد من المقبولين والذي بدوره أتاح الفرصة لاستدعاء الاحتياطي وأنا واحد منهم بعد أسبوعين. ولذلك لم يتخرّج من أصل ثلاثين سوى عشرة طلاب فقط.

وحالما تخرّجنا عام 1975 قررت الجامعة المستنصريَّة توظيف ملاك تدريسي دائم والاستغناء عن المحاضرين الذين يعملون في جامعة بغداد او في دوائر الدولة. وكانت هذه فرصة لنا أن نتعيّن من دون عناء او تزكية حزبيَّة. قدمنا الطلب مباشرة الى رئيس قسم الإدارة الأستاذ المحترم جدّاً محمد طاهر الشاوي (وهو خال د. سلطان الشاوي رئيس الجامعة المستنصريَّة آنذاك) الذي رحّب بنا وأحال الطلب بعد الموافقة عليه للعميد الأستاذ الكفوء سليم ذياب السعدي والذي رحّب بنا بحرارة حيث كان أستاذنا في الكلية. وهكذا تعيَّنا أنا وحمزة الشمخي وعاملة محسن ناجي وماجدة العطية وهناء خيري بدرجة مدرّس مساعد ولم يكن ايّ منّا بعثيَّاً وكان معظمنا ذا ميول يساريَّة وليبراليَّة. ثم التحق بنا الزميل محمد عبد الوهاب العزاوي بعد أن أنهى الخدمة العسكريَّة في السنة التالية. وكان معظم الملاك التدريسي من الإ خوة المصريين المتعاقدين سنويَّاً وكانوا والحق يقال يبذلون قصارى جهدهم علميَّاً وتعليميَّاً مع قصور واضح في الانضباط والإدارة الصفيَّة.

كانت المواد التي تمَّ الاتفاق عليها مع رئيس القسم أن أدرّسها هي إدارة الأعمال للصف الأول مسائي وادارة التسويق للصف الثاني صباحي. يُشاركني زميل مصري رؤوف وصفي لتدريس التسويق مسائي والزميلة عاملة لتدريس إدارة الأعمال صباحي. كان الكتاب المقرر لإدارة الأعمال للأستاذ نعمة الشكرجي متوفراً لدى القسم، ولكن كتاب التسويق للأستاذ سلمان المغازجي غير متوفر. عليه قرّرنا أنا والزميل رؤوف وصفي إعداد ملازم للمادة وفق المنهج المقرر. وتقاسمنا الفصول وانتهت السنة الدراسيَّة بنجاح تام. ولسبب غير معقول لم يُجدّد عقد زميلي رؤوف وصفي للسنة المقبلة. ومن ثم كان واضحاً من أنني سوف أدرّس مادة التسويق صباحاً ومساءً. وللأمانة العلميَّة كان لزاماً عليَّ أن أعيد كتابة الفصول التي كانت من حصة زميلي. وهنا جاءتني الفكرة وهي بدلاً من إعداد ملازم لا تليق بالمستوى الجامعي، لماذا لا أسهر ليل نهار طيلة شهري العطلة الصيفيَّة وأقوم بتأليف كتاب لمادة إدارة التسويق لأسدَّ فراغاً وأغني المكتبة وأنوّع بها مصادرنا بدلاً من الاعتماد على مصدر واحد لأستاذنا الجليل سلمان المغازجي.
كانت علاقتي بالدكتور فالح الساعاتي مدرّس مادة إدارة الإنتاج جيدة جدّاً، وكان قد اعد ملازماً لطلبته وقرر تحويلها الى كتاب أيضاً. كذلك فعل الزميل حمزة محمود الشمخي بتأليف كتاب للإدارة الماليَّة. وقضينا العطلة الصيفيَّة معاً في مكتبة الجامعة المستنصريَّة نكتب ونؤلف ونأخذ المسودات بخط يدنا فصلاً بعد فصلٍ الى عباس كاتب الطابعة الذي يعمل صباحاً في الجامعة ومساءً في مكتب خاص لطبعه على الآلة الطابعة. وكانت أيّام انتاجية متعبة، ولكنّها جميلة لأنّنا كنّا نحاول أن نقدم شيئاً ما خدمةً لطلبتنا أكاديميّاً.

وكان من بين الذين انتقلوا او نسبوا من دوائر الدولة (الدكتور فلان) *. من مستشار في إحدى الوزارات الى مدرّس في قسم الإدارة. كُنَّا نحن الجيل الجديد من حملة الماجستير في عمر يتراوح ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين وكان الآخرون ما بين الأربعين والخمسين عاماً. كان (الدكتور فلان) في عمر الخمسين وكُنَّا نكنُّ له احتراماً خاصاً. كان بشوشاً منكتاً يبدو متواضعاً في معظم الأحيان. ولكن بمرور الأيّام جوهر المعدن يُبان. في أحاديثنا الجانبيَّة كان يدّعي أن أربعة عشر شخصاً في القيادة القطريّة لحزب البعث وقعوا على نقله، ليس ليكون مدرّساً وإنّما ليستلم مركزاً إداريّاً كرئاسة القسم او العمادة. وكان ينوّه من أنّ قيادة الحزب تدعمه (ولم يكن ذلك صحيحاً). لم أستسغ ذلك لمحبّتي وتقديري لرئيس القسم وللعميد ولم أجد لديه الكفاءة العلميَّة او الإداريَّة.

بعد أن أتممنا إنهاء التأليف وطبعه على الآلة الطابعة قدّم كلٌّ منّا انا والدكتور فالح والأستاذ حمزة الشمخي الطلب الى رئيس القسم لغرض إحالة مؤلفاتنا الى اللجنة العلميَّة لإقرار صلاحيتها علميَّاً أولاً ثم اعتباره كتاباً مقرّراً معتمداً ثانياً، ثم طلب تعضيده وطبعه على حساب الجامعة المستنصريَّة ثالثاً. بعد يومين من التقديم بعث لي رئيس القسم وطلب منّي غلق الباب والجلوس والاستماع. قال لي إنَّ (الدكتور فلان) يريد أن يشاركك في تأليف الكتاب ويريد أن يُدرّس مادة التسويق في العام المقبل، وعليه فليس من المعقول وهو دكتور أن يُدرّس بكتاب مؤلّفه من حملة الماجستير. قلتُ له ما رأيك أنت قال إنّك تعرف جيداً معزتك عندي وأنا اعتبرك أفضل وأنشط التدريسيين في القسم. ولكن هذا

الشخص مستقوٍ بالحزب ودكتور ولسانه سليط ولا أدري إن كنت ستستطيع مقارعته. قلتُ له أستاذ ابو سعد في هذه المرحلة لا أريد إلّا أن تحيل الكتاب الى خبير متخصص لإقرار علميَّة الكتاب وأصالته وليس بالضرورة أن يكون كتاباً مقرّراً أو معضّداً. أريده أن يكون مصدراً علميَّاً ويستطيع الدكتور أن يؤلف كتابه بالكامل وبمفرده ويُدرّس مادة التسويق، وأنا قادر أن أدرَّسَ أيَّة مادة إداريَّة أخرى. قال لي حسناً ذلك، ولكنّه يريد أن يتحدث معك قبل ذلك.

جاءني (الدكتور فلان)، وهو من عمر والدي والذي يتوقع منه أن يكون سنداً للشباب الذي يسعى لخدمة بلده وظيفيَّاً وعلميَّاً. لكنَّه جاء كي يسرق ثمرة جهودي العلميَّة. جاءني بابتسامته وصداقته المصطنعة وقال لي من أنّه يحبني ويعزني كثيراً. وطرح الموضوع كما يلي: أريد أن أساعدك، إذا وضعت اسمي على الكتاب فإنّني أضمن إنسيابيَّة التزكية العلميَّة والتعضيد والطبع على حساب الجامعة. كذلك أضمن لك الموافقة على اعتماده كتاباً مقرراً في المستنصريَّة وجامعة البصرة وجامعة الموصل. كذلك أضمن أنَّ الجامعات الثلاث سوف تشتري النسخ الكافية لطلبتها. إنّه مشروع مفيد للطرفين. قلت له: دكتور كيف ستشارك في التأليف والكتاب مؤلف ونسخة منه مع رئيس القسم؟ هل تقصد أن أضع اسمك على الغلاف فقط؟ قال: نعم هذا يكفي. قلت: وهل سيكون اسمي هو الأول باعتباري المؤلف الحقيقي أم اسمك الأول باعتبارك دكتوراً؟ قال: لا طبعاً اسمي هو الأول. قلت: ولكنّك لم تُدرِّس إدارة التسويق سابقاً. قال: نعم ولكنّي أريد التجديد! قلت: وإذا رفضت قال: فإنَّ كتابك سوف لا يرى النور

في الجامعة. قلت: فبها، أطبعه على حســـابي الخاص خارج إطار الجامعة. هنا تحول كلامه ليكون حادّاً وصـــارماً، وقال عليك أن تسـمع الكلام فلقد وقعت القيادة السـياسـيَّة على نقلي لأكون في مركز قيادي ولا يسـتطيع شـخص مثلك أن يُعصـيني. قلت: إنّك تعرف أنّني لستُ بعثيَّاً ولستُ تكريتيَّاً ولستُ من عشيرة يُعتدُّ بها ولي ســنة واحدة في التدريس وإنَّك تمتلك كلَّ ما ســبق. ولكن لعلمك أنّي مســتعدٌّ أن أحرق الكتاب ولا يكون اســمك عليه، ومسـتعدٌّ لمصـارعتك لأنّي تربّيت في سـوق الشـورجة بين تجارها وحماميلها (عتالتها) ولا فرق عندي بين الاثنين ســوى من يتحلى بأفضـــل الأخلاق. هنا تراجع (الدكتور فلان) ليدخل لي من بابٍ ثانٍ. فقال لي هل تعلم أن الدكتور ...... مســؤول عن الشــيعة في جامعة بغداد وأنا مسؤول عن الشيعة في المستنصريَّة (وهو ادّعاء كاذب). وقع هذا الادّعاء وقع الصــاعقة عليَّ فجاوبته باشــمئزاز: هل أنت بعثيّ أم طائفيّ أم مصـــلحجي؟ ســأذهب حالاً للعميد لأطرح عليه الموضــوع كلّه وليكون هو الحكم. مســـك بيدي متوسّـلاً محاولاً أن يثنيني إلّا أنني سـحبت يدي منه وصـعدت الى الطابق الأعلى لغرفة العميد فقابلت سـكرتير العميد لطيف عارف طالباً لقاءه. قال إنَّ العميد قد خرج للتو ويعود غداً وبإمكانك أن تراه قبل الدوام الســاعة الثامنة صــباحاً. إلّا أنّه رأى شــدّة تأثّري فطلـب منّي الجلوس والحـديـث. حـدثتـه بـالأمر، اســتغرب أن يحدث مثل ذلك في الجامعة، وأصرَّ أن أرى العميد صـــباح اليوم التالي.

ذهبتُ في اليوم التالي لمقابلة العميد سـليم ذياب السـعدي وهو مسـتقيم شـديد المراس انضـباطي علميَّاً وإداريَّاً. المهم أن سـليم

السعدي (ابو سهير) بعثي حقيقي وقديم منذ عهد عبد الكريم قاسم وليس من المستبعثين لأغراض وصوليَّة او انتهازيَّة، ولم يكن في إدارته أي نوع من التفريق بين المنتمين وعدمهم. حينما وصلت الى الممر المؤدي الى مكتب العميد كان بانتظاري (الدكتور فلان) استوقفني للحديث. قلتُ لديَّ موعد مع العميد لا يحتمل التأجيل. أخذ بالتوسّل والاعتذار ومن أنّه سوف لا يتدخل بموضوع الكتاب ومن أنّه سوف لا يدرّس مادة التسويق وأنّني مثل ابنه وأخذ يقبل رأسي وأراد أن يتواضع أكثر فلم أسمح له لأنّه من عمر والدي. قلت حسناً اذهب وأخبر رئيس القسم بذلك وسوف أبلغ سكرتير العميد بإلغاء المقابلة. أبلغت لطيف عارف الأمر. اعترض بشدّة وقال لا تنخدع ويجب أن يعرف العميد بالموضوع. قلت له إنّه بعمر والدي وتواضع كثيراً وأخلاقي لا تسمح لي بإذلاله أكثر من ذلك.

وافق رئيس القسم على تعضيد الكتاب وأحاله الى خبير علمي. لاستغرابي الشديد اقترح أن يكون الخبير هو (الدكتور فلان). سألته لماذا هذا الاختيار قال لثقتي الكبيرة بك أولاً ولأنَّ ذلك سوف يسكته الى الأبد. وفعلاً لم يأخذ الموضوع طويلاً من (الدكتور فلان) وجاء التقرير من أنّ الكتاب يستوفي كل المتطلبات العلميَّة. أحيل الكتاب الى لجنة المناهج لإقراره كتابا مقرراً لمادة إدارة التسويق لطلبة الصف الثاني إدارة الأعمال. ثم تمت إحالته الى لجنة التعضيد التي وافقت على طبع 1000 نسخة على حساب الجامعة المستنصريَّة. أخذنا الكتاب الى دار الرسالة في الأعظمية وكانت مطبعتهم في باب المعظم، وكل الطبّاعين مصريون وطبع الكتاب على وجه السرعة. أضفت طباعة 1000

نســخة على حســابي الخاص لثقتي من أنَّ الكتاب ســوف يُباع، وليكون بين أيدي طلبتنا بعد أن اشــترت الجامعة 600 نســخة منه.

الموضــوع لم ينتهِ هنا. بعد ذلك بأســبوع كُنَّا أنا والدكتور فالح الســاعاتي و(الدكتور فلان) مجتمعين في إحدى غرف القســم بعد انتهاء الدوام الصــباحي باعتبارنا في لجنة المناهج، وإذا بالعميد يدخل علينا وعلى وجهه كالعادة نظارته الســوداء الغامقة التي لا تُرى منها عيناهُ بأيِّ اتجاه تدور. وسـأل ما الذي تقومون به؟ طبعاً انبرى (الدكتور فلان) بالجواب من أنّنا لجنة المناهج ومجتمعون لغرض تطوير المناهج الدراســيَّة. قال له العميد ســمعتُ أنَّك تتكلّم بالسياسة هذه الأيّام. هل تتذكّر في زمن عبد السلام عارف حينما كنت أنا أتحدث بالسياسة خرجت أنت من الغرفة وقلت: "اســكت ياخوك لا تبلينا؟" ضــحك (الدكتور فلان) وبلعها. ثم اثناها أبو سهير وهو واقف على رأسنا كالنسر الجارح ونحن الثلاثة جالسين: كيف تكون في لجنة المناهج وأنت الذي ايام زمان حينما سألتك كيف خرجت من نصف المحاضرة حينها قلت لي: قشمرنا الزعاطيط (الأطفال) بحجايتين وطلعنا. بعدك اتقشــمر (تخدع) الطلاب؟ احمرَّ واصفرَّ وجه (الدكتور فلان) وياريت الأرض بلعته قبل ســماع هذه الإهانات. لم يكتفِ العميد بذلك، أدار رأســه باتجاهي وقلت لنفسي يا ساتر! وقال لي: "أستاذ محمد" هل بعث لك رئيس القســم أبو ســعد كي تختار المواد التي تحبّ تدريســها لهذا العام؟ قلت نعم أســتاذ. قال: وهل قال لك أن العميد يقول إنَّ الأوليَّة لحملة الماجســتير قبل الدكاترة والمصرــين في الاختيار؟، قلت نعم أســتاذ. قال: وهل قال لك إنّك بالذات لك

السبق في الاختيار قبل الجميع؟، قلت نعم أستاذ. قال إذا أردت أي شيء فإنَّ مكتبي مفتوح أمامك، وخرج دون وداع. كلام لا يصدق ولكنّي علمتُ من ذلك أن سكرتير العميد لطيف عارف الذي أعزّه كثيراً ويحترمه الجميع، قد أبلغ العميد القصَّة بكاملها.

لقد كان معظم السياسيين بمختلف توجهاتهم يتميزون بالنزعة الوطنيَّة، مخلصين في أدائهم الوظيفي. ولم تكن السرقة او الرشوة او الاختلاس إلّا حالات نادرة عادةً سببها الفقر او الحاجة او الجشع. وكان الانتماء السياسي عبارة عن الإيمان بعقيدة أو فكر يلتزم به الشخص ويدافع عنه ويضحي في سبيله. واليوم نرى الانتهازيين والوصوليين والسماسرة يعتلون أعلى المناصب ليحصدوا الكثير ويقدموا القليل. فكما استبعث معظم أبناء الشعب العراقي أيّام صدام بسبب الخوف او لتحقيق مصالح شخصيَّة، نرى اليوم الكثيرين ممن يركبون موجة الدين والطائفيَّة والعشائريَّة كي يصلوا الى مآرب دنيئة أنانيَّة لا تخدم الوطن او الدين. تحية إجلال واحترام الى الأساتذة محمد طاهر الشاوي (أبو سعد) والأستاذ سليم ذياب السعدي (أبو سهير) وأمثالهما ممن أدّوا رسالتهم الوطنيَّة وفصلوا بين انتمائهم السياسي وأدائهم الوظيفي في خدمة الوطن.

* (الدكتور فلان) سوف أتجنّب ذكر الاسم بالكامل لأنَّ الغرض هو العبرة في الحدث وليس التشهير الشخصي.

الطالبة (س)

ما أحلى الحياة الأكاديميَّة، فقد كُنَّا مجموعة من الشباب المندفعين الى أقصى درجات الاندفاع. نحاضر ونؤلف كتباً وننشر أبحاثاً ونكتب مقالات، ونريد أن نصلح الجهاز التعليمي ونطوّر المناهج الدراسيَّة، ونرفع المستوى العلمي في جامعتنا، الجامعة المستنصريَّة. نعم كُنَّا مجموعة متحمِّسة من التدريسيين الجدد معظمنا خرّيجو الدورة الأولى لماجستير إدارة الأعمال وماجستير الاقتصاد والدبلوم العالي لمراقبة الحسابات من جامعة بغداد، أذكر منهم الزملاء محمد عبد الوهاب العزاوي، حمزة الشمخي، عاملة محسن ناجي، تقي العاني، هناء إياس، مهدي صالح العاني، ماجدة العطية، أوس، فوزي العاني، شلال الجبوري، فاضل عبد الستار، فتوح العمران، وغيرهم كثيرون.

كان الملاك التدريسي ـ في النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي، ينقسم بالنصف تقريباً، نصفهم مصريون والنصف الآخر عراقيون. كان زملاؤنا المصريون، جادّين في عملهم، مخلصين في إدائهم، يتمتعون بقدرة تدريسيَّة جيدة، إلّا أنّهم لا يستطيعون ضبط الصف خاصة في أداء الامتحانات الفصليَّة. وكانت هذه الظاهرة مؤثرة في سلوك الطلبة وانضباطهم، ويشكل تبايناً شاسعاً بين مراقب عراقي أو مصري. وطبعاً لهم أعذارهم فإنّهم يخافون المشاكسة مع الطلبة، خاصة في الدراسات المسائيَّة حيث كان معظم الطلبة موظفين في أجهزة الدولة ومنهم ضباط في الجيش والشرطة، ومراتب حزبيَّة عالية في حزب السلطة.

وكما يحدث في كلِّ الامتحانات فإنَّ بعض الطلبة يغشّون أو يحاولون الغشَّ حتى وإن كانوا في سنٍّ متقدم. أجريتُ امتحاناً للفصل الثاني وهو من عشر درجات فقط لطلبة الصف الثاني مسائي لمادة إدارة التسويق، وكان أحد الأسئلة يتطلب عمليات حسابيَّة لتقرير سعر البيع لإحدى السلع. لاحظتُ أنَّ الآنسة (س) تتطلّع كثيراً يميناً وشمالاً، لتحصل على مساعدة (غشّ). نبّهتها عدّة مرّات، إلّا أنّها كانت مستميتةً، وغير مبالية. وحينما أعطتني ورقتها الامتحانيَّة، لاحظت أنَّ هناك إجابة رقميَّة من دون عمليات حسابيَّة تسبقها؟، راجعت الموضوع عند التصحيح، وكان واضحاً أنَّها نقلت الرقم النهائي من زميل مجاور. منحتُها صفراً من عشرة، ووصمت ورقتها بأنّها غشّ. طبعاً هذا لا يعني أنّها لا تستطيع النجاح. كلّ ما عليها أن تجمع خمسين من أصل تسعين درجة المتبقية وتنجح.

بعد يومين فقط بعث في طلبي معاون العميد لشؤون الطلبة الزميل شلال الجبوري، وسألني ما هي قصّة (س)؟ حكيتها له كما هي. طلب منّي أن أعيد النظر في التصحيح، أو إعادة امتحانها، أو ... كلّها حلول ليستْ أكاديميَّة، وإنّما مساومات استرضائيَّة. رفضت إعادة النظر، أو إعادة الامتحان لأنَّ العذر لم يكن غياباً بسبب المرض أو السفر أو إيفاد أو ... عند ذاك سحب شلال من درج مكتبه كتاباً من "القيادة القوميَّة: قسم شؤون الطلبة العرب" مُعنون الى العميد، يطلب فيه التدخل لمصلحة الطالبة "العربيَّة س" ومحاسبة الأستاذ!

والآن ما هو رأيك؟ قالها أســـتاذ شـــلال، وكأنَّه يقول لي: نحن لا حول ولا قوّة لنا. والحق يقال لو كان الأمر بيده لأحالها الى لجنة انضـباطيَّة، لأنَّه من التدريسـيين الجدّيين جدّاً الذين لا يشـجعون أيّ شــكل من أشــكال الانفلات. ما كان منّي ســوى أن أقول له: ما الذي تريدني أن أفعله؟ قالها على مضض، أن أغض النظر ونتجنّب عواقب القيادة القوميَّة. قلت لـه: عزيزي أبو رُقيَّة: أنـا لن أغيّر موقفي. هذه الطالبة غشّــت، وغشّـــت بتحدٍّ، وهذا أقل عقاب. أجابني وماذا عن كتاب القيادة القوميَّة؟ قلت إنّه موجه للعمادة ولك وليس لي، إذا كان بإمكانك أن تغيّر التصـحيح غيّره بنفســك. قال: يبدو أنّها على صـــلة بأعلى جهة في الحزب، قلت: أنا لســـتُ حزبيّاً، أنا مدرّس أكاديمي في الجامعة المســتنصريَّة. أحســستُ بالمُعضـلة التي وقع فيها زميلي شـلال، والإشـكال الذي سـأقع فيه من وراء تعنّتي غير المناســـب في مثل تلك الظروف، ولكن كان لا بدَّ من تثبيت موقف يتناســب مع القيم التي نشــأتُ عليها. انتهى الحوار.

إدراكاً منّي لخطورة الموضوع وتبعاته عليَّ بشكل خاص، ولإدراكي

من أنَّ الأنســـة (س) إحدى مدللات القيادة القوميَّة، ذهبت في اليوم التالي الى المقر العام للاتحاد الوطني لطلبة العراق، للقاء رئيس الاتحاد وهو زميل ســابق في الدراســـات العليا "عبد الكريم محســـن". حينما رآني ســـبقني بالاعتذار، وقال لي إن المكتب الطلابي في القيادة القوميّة اتصـلوا به حول الموضــوع، وأخبرتهم من أنّك من أفضل الأساتذة وعليهم أن لا يستمعوا للطالبة، ولكن

للأســف يبدو أنّها تعرف قياديين على مســتوى عالٍ جداً. حدثته بالذي جرى مع شــلال، ووعدني انه لن يُلحقني أو شــلال أي ضرر من هذا الموضــوع. واني لمتأكد، من ان شــلال وعبد الكريم بذلوا جهداً كبيراً كي يجنِّبوني نتائج مخيفة. وليس من باب المبالغة إن قُلت إنّني بقيتُ في حالة خوف ورعب لمدة طويلة، وإن كنت لم أندم على موقفي إطلاقاً.

السؤال الذي يخطر في بالي، أنّه في أيام "الزمن الجميل" كان هناك قيادة قوميّة واحدة ومنظمة طلابيَّة واحدة، وحزب حاكم واحد، ومع ذلك كان هناك بعض التأثير الســلبي على العملية التعليميَّة، الســؤال: ما الذي يحدث هذه الأيام في جامعاتنا، وهناك أكثر من كيان ســياسي وأكثر من تجمع ســياسي وأكثر من منظمة مســلحة، موزعة حســب الطائفة وحســب المنطقة والعشــيرة، وحســب الدين وحســب الانتماءات الإثنيّة. كيف يُقاوم التدريسيــ هذه الأيام، إذا ما هُدِّدَ باســم العشــيرة أو العائلة أو الطائفة، في ظروف أفضل ما توصف به أنّها انفلات أمني وتدهور ثقافي؟

التنمُّرُ الأكاديمي

بدأ رئيس القســم بالتحدث عن مهمة لجنة المناهج الدراســية، وما يجب ان تقوم به، وعدم الاعتماد الكلي على المناهج المنقولة من جامعة بغداد. حيث ان الجامعة المستنصرية يجب أن يكون لها اســتقلاليتها وهويتها المتميزة، خاصــة بعد أن تنمي ملاكها التدريسيـ الدائم المســتقل عن جامعة بغداد. وبناءً على هذه المقدمة القيمة، بدأ الحديث يتداول فيما بيننا حول كيفية تحقيق هذا الهدف. وقبل الولوج الى صُــلْب الموضــوع لا بدَّ من تعريف طبيعة الهيئة التدريســية، حيث كانت متباينة في العمر والخبرة والتحصــيل العلمي والألقاب الأكاديميَّة. والمفروض ان يكون ذلك عنصرـ حيوية لخلق نهضــة منهجيَّة في المواد التدريســيَّة، إلّا أن الموضــوع انقلب بسرـعة ليكون حواراً بدائيَّاً وللأسف عدائيَّاً.

حينما حاولت تقديم اقتراح تشكيل لجان فرعية متخصصة لكل مادة من المواد التدريسيَّة، اعترض الدكتور المخضرم فُلان، وقال بطريقة تنمُّريَّة متعجرفة وبالحرف الواحد: "بحضــور الكبار، الزعاطيط (الأطفال) تســكتْ"، فُوجِئْتُ وصُــدِمْتُ والتفتُ الى رئيس القســم كي يقول شــيئاً، إلّا أنّه حاول تجاهل الموقف، وإن بدا الحرج والامتعاض عليه. بعد ذلك تكلّم أســتاذ نجيب مؤيّداً لما ذكرته، وإذا بدكتور فلان يقول بطريقة تسـلّطيَّة ســاخرة له: "هـالمرة التلكيف يريـدون يعلمونـا". ويســتخـدم الجهلـة

الشـــوفينيون كلمة "تلكيف" وهو اســـم مدينة عراقيَّة عريقة في سـهل نينوى شـمال العراق، بهذه الطريقة على كلّ مسـيحي، ليس لانتســـابهم لتلك المدينة، وإنّما تنكيلاً وتصـــغيراً لأبناء تلكيف والقوش وبطناية وغيرها من مدن ســـهل نينوى الجميلة وأهلها الطيبين. وما هم إلّا من ســـكان العراق الأصـــليين، الذين يعملون بكدهم وعرق جبينهم، فما كان منّي إلّا أن أقف على قـدميّ هـذه المرّة، مخاطباً رئيس القســـم: نحن هنا في اجتماع رســـمي، وأنا أُطـالـب بـأن يُـدوَّن كـلَّ مـا ذكره دكتور فلان، حول الزعـاطيط والتلكيف في محضر الجلســة. حاول رئيس القســم، أن يُســايرني لأنَّه يعلم أنَّ الحقَّ معي، وأن دكتور فُلان لم يكن عليه أن يتحدث بهذه الطريقة. إلّا أنّني هدّدتُه بأنّي ســـأذهب فوراً الى عميد الكلية الذي كان في حينها "سليم ذياب السعدي" الذي أعرفه من أنه لن يتقبّـل مثـل هـذا النوع من التجـاوزات اللا أخلاقيَّـة في الحرم الجامعي. أما الدكتور الآخر في الجلسة، فإنّه فضّل أن يكون جالساً على التل، متفرّجاً ومستفيداً من تناقضات الآخرين.

بعد ذلك تحرّك أســـتاذ نجيب، وهو محاســـب قانوني، خريج إنكلترا، وإنســـان في منتهى الأدب والأخلاق، في الدفاع عن نفســه، وشارك في الملاسنة التي بدأت فيها أصواتنا تعلو ويسمعها من هم خارج المكتب. وحينما رأى دكتور فُلان المُتزمت والمُتحكّم الذي كان يتبجّح بصلته بحزب السلطة، أنَّ موقفه تافه لأبعد الحدود، بدأ بالتراجع الســـتراتيجي، والادّعاء بأنّها كانت ممازحة وميانة بين الأحباب والزملاء، وإنّنا بالنســبة إليه مثل أبنائه، لذلك اســتخدم معنا كلمات دارجة ومتعارفاً عليها! أَعْلَمْتُهُ أنّنا هنا في لجنة عمل، وإنّنا هنا متســاوون في الحقوق والواجبات، وإنّ أفضـلنا هو أكثرنا

عملاً وليس أكبرنا سنّاً أو أعلانا شهادةً، وإن أكثرنا عملاً هو أكثرنا وطنيَّة، وأنَّ الوطنيَّة والإخلاص للوطن لا دخل لها بالألقاب الأكاديميَّة أو الانتماءات الحزبيَّة.

أجابني وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة: "هوب، هوب، عمي راح تاكلنه وتشربنه". هنا تدخل رئيس القسم وهو إنسان محترم جداً، وقال إنَّ الحق مع أستاذ محمد وطلب من دكتور فلان أن يعتذر بشكل أصولي وجدي ومن دون مُزاح، وعلى ألا يتكرر مثل هذا التصرّف في الاجتماعات المقبلة، وقد تمَّ ذلك فعلاً، وقد عُدّ ذلك الاجتماع مُلغى، على أن تؤخذ مقترحات أستاذ محمد بجديَّة. وفعلاً تشكلت لجان فرعية لكل مادة علميَّة، وكنت أشارك في إدارة معظم هذه اللجان. وبطبيعة الحال فإنَّ النفس الأمارة بالسوء لا يمكن أن تغيّر من مسيرتها. وتكرّر ذلك مرّات ومرّات مع دكتور فلان ومن هم على شاكلته. وفي الصورة أدناه توثيق لإحدى جلسات اللجان الفرعيّة مع الزملاء الأستاذ عبد الستار فاضل وسكرتيرة القسم هاسميك (لاحقاً زوجتي) والأستاذ عبد المنعم الربيعي وكاتب هذه السطور، كان عملاً جماعيّاً جادّاً مع من أراد أن يقدم شيئاً لوطنه.

وللأسف الشديد نتعرّض في الحياة لأناس يبذلون جُلَّ جهدهم لإيجاد نِقَاطَ ضعفٍ عند الآخرين، كي يسخّروا ذلك في محاججاتهم وسباقهم نحو المناصب او المراكز او الجاه او المال او كلّ ما سلف. بينما المفروض أن يبحثوا عن نِقَاط القوّة في زملائهم وأصدقائهم وأقاربهم وأبناء وطنهم، كي يجدوا سبباً

حقيقيّاً للتقدير، وتوجيباً لصــفات إنســانيَّة راقية، لتســليم دفّة العمل لرُبانٍ يستطيع أن يقدم ما لا يستطيع أن يقدمه الآخرون.

اجتماع لجنة مادة المحاسبة مع الأستاذ عبد الستار فاضل وهاسميك سكرتيرة قسم الإدارة والأستاذ عبد المنعم الربيعي وكاتب السطور بتاريـخ 1978/1/9

الخاتمة

سَــمَّيْتُ هذا الكتاب "شــموع لا تُطفئها الرياح" لأنَّنا لا نعيشُ كلَّ عمرنا الزمني، وإنَّما نعيش بمعنى العيش لحظاتٍ وأحداثاً ومشاهدَ قاسية نتعرَّضُ لها، أو سعادة مبهجة تترك أثراً أبديَّاً فينا. كذلك في مجرى حياتنا نتعرَّفُ على الكثير من الأقارب والأصـدقاء والزملاء، إلّا أن معظمهم يطوي الزمن ملامحَهم وينسينا ذكرياتِنا معهم. إلّا نفرٌ منهم ترك بصـــماته في حياتنا، أمٌّ مربّية بمعنى الكلمة وأبٌ حريص على أبنائه، ومُعلّم تعلّمنا منه الأخلاق قبل العلوم، وجارٌ كان يحمي الجوار، ومناضـــل فدى وطنه بكل ما يملك بعيداً عن اية منافع شــخصــية. أنهم الشــموع التي لم تُطفئها الرياح والتي ظلت تنير دربنا ليومنا هذا.

لقد كتبتُ هذه القصص القصيرة بعد خمسين أو ستين أو سبعين عاماً على حدوثها. فهي ليســتْ مذكرات شــخصــيَّة كُتبتْ حال حصــولها، وإنّما مراجعة لما مررنا به منذ الذاكرة الطفوليَّة الأولى وحتى يومنا هذا. وحينما اســترجع هذه الأحداث أرى الكثير مما حدث لا معنى له. اضــطهاد مبرمج من قبل كلّ الحكومات اتجاه أبناء الشـعب. الشـعب وقواه السـياسـيَّة خاضـوا صراعاتٍ تطلّبت تضـحياتٍ لا مبرّرَ لها. أقرباء تخاصـموا على أمورٍ تافهة، أصـدقاء انفصلوا بسبب اختلاف آرائهم السياسيَّة او انتماءاتهم الطائفيَّة.

لا عودةَ الى الوراء بالنســبة لنا، ولكنِّي أتمنّى أن يكون لبعض ما سردناهُ توثيقٌ لمرحلة تاريخيَّة معيّنة، وربما يستخلصُ هذا الجيل

منها بعض الاســـتنتاجات التي تغنيه عن إعادة الأخطاء والمآسي نفســـها التي مررنا بها، راجياً ان يســـتنيروا بتلك الشـــموع الدافئة الشامخة التي لم يستطع الزمن إطفاء نورها.

المحتويات

- **إهداء: 5**
- **تقديم: 7**
- **شكر وإمتنان: 10**
- **مقدمة: 11**
- **طفولتنا السعيدة**

سستر ميري: **15**

أنا وجدِّي في سينما النجوم: **18**

اللاعب الصغير: **22**

المنلوجست صادق القندرجي: **30**

دروسٌ مبكرة في العطاء: **38**

- **دراما المواصلات**

مخالفة مروريَّة في شارع الرشيد: **45**

تصادم في شارع الجمهوريَّة: **50**

سفرة الى الصدور: **53**

جلسة فصل عشائريَّة: **58**

التحرُّش الجنسي في المواصلات: **68**

•حكاياتُ حبٍّ بغداديَّة

الشُّرفة: **73**

حُبٌّ بلا عِناق: **80**

• سوق الشورجة

مولود الجايجي: **85**

الحمال حميد: **91**

طموحات نجم الجايجي"... **95**

• المنتمي واللا منتمي

قوة الأشياء: **101**

روح التمرُّد لدى زوربا: **106**

شبوط في مستشفى الطوارئ: 111
عادل الشعرباف وذكريات البيت الأحمر: 117
رُعبٌ على الأرض وفي السماء: 122

• **الجامعة المستنصريَّة**

عاشقة الزهور: 131
صراع بين الكرامة والواجب: 135
سيرة طلبة جامعيين: عباس ومحمد وتوماس: 141
سيرة أستاذ جامعي: مهدي صالح العاني: 146
السرقة العلميَّة في الأروقة الجامعيَّة: 152
الطالبة (س): 161
التنمر الأكاديمي: 165

• **الخاتمة:** 169

محمد حسين النجفي

شموع لا تطفئها الرياح

شموع لا تطفئها الرياح

مذكّراتي تختلفُ قليلاً عن الآخرين كونها ليست سرداً زمنيّاً لحياتي وما جالَ فيها، وإنّما أحداثٌ مختارةٌ ومنتقاةٌ لقيمتها الحضاريّة والاجتماعيّة والسياسيّة، والتي أرجو أن يُستخلصَ منها بعضُ الدروس والعبر. وهي بالتأكيد ليست مذكّرات وزير أو رئيس دولة أو سياسي قيادي بمعنى الكلمة، وإنّما هي ذكريات ومذكّرات شاهد عيان على الأحداث لأنّه عاشها وشارك فيها وكان على تماسٍ مباشرٍ بها في الشارع والمحلة والمدرسة. فهي - بذلك - سجلُّ مواطنٍ عاديٍّ من عائلة ليست ذاتَ شأنٍ ولا حسب ولا نسب، إلّا أنّه عاش في خضم ظروف مفصليّة متقلّبةٌ وأحداث سياسيّة مربكة في تغيّرها، ومأساويّة في نتائجها

Isbn: 978-9922-9857-5-6

9 789922 985756

أهوار للنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
e-mail: ahwar.publisher@gmail.com
page دار ومكتبة أهوار | أهوار للنشر والتوزيع | darahwar